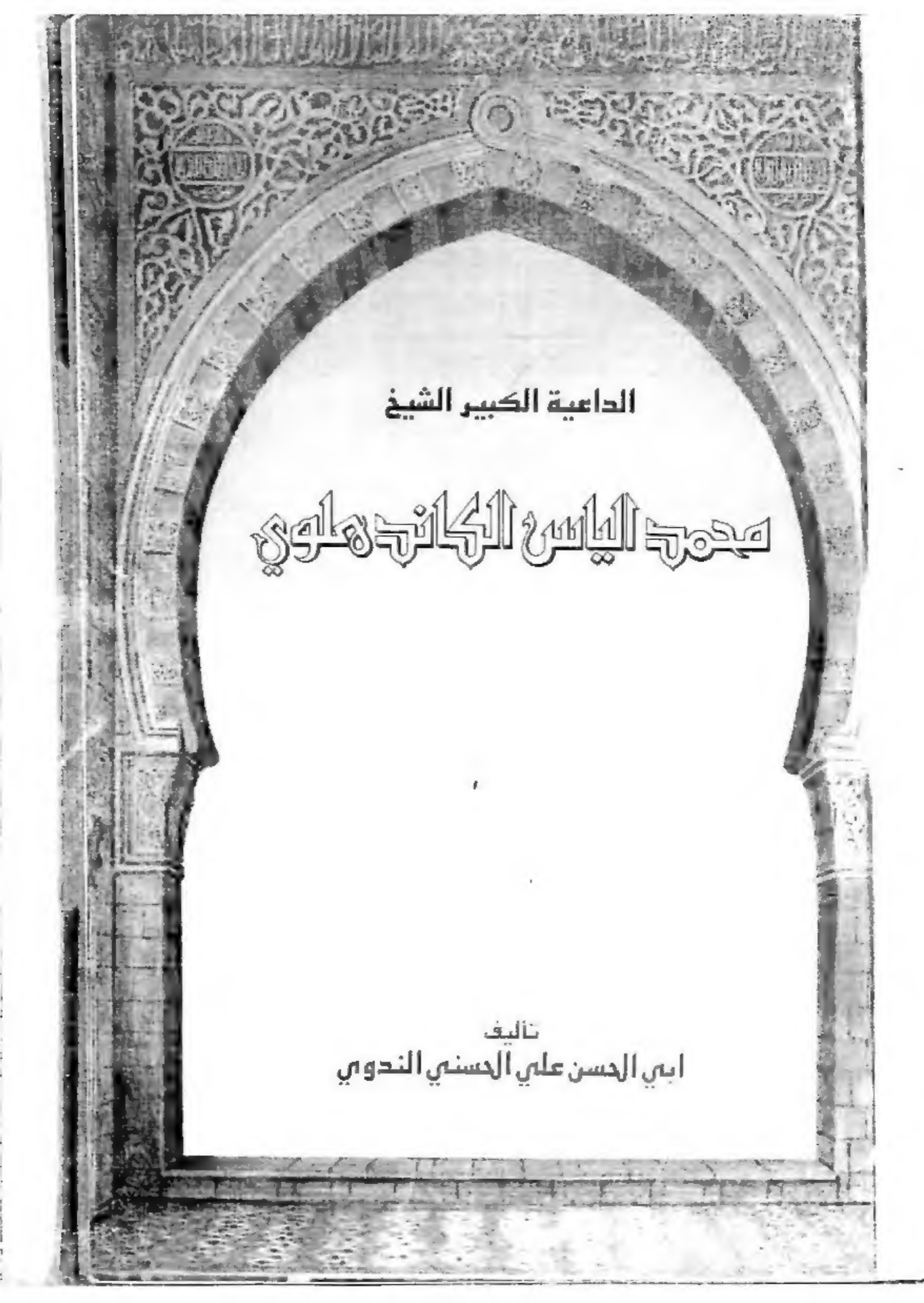

الداعية الكبير الشيخ
محمد الياس الكاندهلوي
تأليف
ابي الحسن علي الحسني الندوي

الداعية الكبير الشيخ
محمد الياس الكاندهلوي
مؤلفه
ابو الحسن علي الحسني الندوي

ابو الحسن علي الحسني الندوي

الداعية الكبير الشيخ

محمد الياس الكاندهلوي

المركز العربي للكتاب
الشارقة ـ دولة الامارات العربية المتحدة





الطبعــة الاولــى
١٤١٠ ـ ١٩٩٠م

المركز العربي للكتاب
الشارقة ـ دولة الامارات العربية المتحدة
ص . ب : ١١٤٥ ـ الشارقة ـ تلفون : ٥٢٦٥٢٠ فاكس : ٥٢٦٥١٩ ـ تلكس : ٦٨٥٠١ برايم ـ ي ـ م

صحح طباعة الكتاب
فضيلة الشيخ محمد محمد أحمد أبوالشيخ

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

لفضيلة الشيخ محمد منظور النعماني، منشيء مجلة «الفرقان»

الحمدلله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد كنا نتردد برهة من الدهر في تأليف كتاب عن حياة الشيخ محمد الياس ـ رحمه الله ـ فقد كان الشيخ يوصينا ويؤكد علينا بأن لا نربط بين شخصيته ودعوته وحركته، ولم يكن يسمح ـ اطلاقا ـ بأن تكون الدعوة إلى شخصيته، حتى إنه كان في آخر ايام حياته لم يكن يرضى بأن يذكر اسمه في التعريف بحركته، كان ذلك مؤسسا ـ عدا اخلاصه وتواضعه وايثاره وتحفظه الشديد ـ على مصالح دعوية بعيدة المدى، ولكننا وأهل الدعوة والعاملين في هذه الحركة لم ننجح في ذلك، ولم نستطع الالتزام به، فكثيرا ما كانت مصالح الدعوة تقتضي أن يذكر مؤسسها حتى يهتم بها من كان يعرف شخصية المؤسس وأخلاصه وربانيته وتزداد بها ثقته، ويحسن بها ظنه، كما كان يلزم احيانا لشرح اصول الدعوة وقواعدها وما ظهرت من نتائج باهرة في تطبيقها، ذكر تجارب الداعي الأول مؤسس الحركة الشخصية ومراحل الدعوة وتطوراتها التي مرت بها في أيام مؤسسها، ولم يكن بد حينئذ من ذكر اسم الشيخ وجهوده الجليلة، وكان ذلك في اكثر الأحيان في مصلحة الدعوة وفائدتها.

ولا يزال كاتب هذه السطور والمؤلف يذكر بأننا كنا نعاتب أحد اصحاب العلم والفضل والكتابة «بدلهي» عتابا وديا، على عدم حضوره لمركز الدعوة وقلة اهتمامه بها، وكنا نحاول اقناعه بذكر اهمية هذه الدعوة وعظمتها، فلما تطرقنا إلى ذكر شخصية الشيخ الوقور المحترمة وربانيته الصادقة وآراء كبار العلماء المعاصرين فيه، رأينا ان الدعوة اصبحت في نظره ذات ثقل وخطورة، ومكانة، ولم يؤثر فيه شيء كتأثير ذلك.

لقد شعرت من خلال تلك التجارب والمصالح الدينية المتعددة بضرورة التأليف في سيرة الشيخ وتاريخ دعوته وحركته اثناء مرضه الشديد الذي لم يكن يرجى البرء منه، وكان فضيلة الشيخ ابوالحسن علي الحسني الندوي نازلا بالمركز في آخر ايام مرض الشيخ، فلما أبديت له مكنون ضميري ألفيته يحمل هذا الهم ويفكر هذا التفكير، بل قد بدأ يسجل بعض المواد المهمة، ثم مالبث الشيخ ان ارتحل إلى رحمة الله الواسعة، وقوى هذا الاقتراح، واصبح أمرا مبرما.

وكان في آخر ايام حياة الشيخ ـ رحمه الله ـ قد اجتمع لخدمته وزيارته الأخيرة جميع العاملين والزملاء القدامى في هذه الحركة واقارب الشيخ وذوو رحمه، وكاد هذا العقد الفريد أن ينفرط، وأوشك الجمع على التفرق، ولم يكن بوسع أحد أن يقول: إن هذه المجرة سوف يزدان بها الفضاء مرة ثانية، فاستفاد الشيخ ابوالحسن من تلك الفرصة السانحة ايما افادة، وجمع المعلومات المهمة ـ التي لا يمكن بدونها تأليف كتاب عن حياة اي شخص عن الشيخ ـ من ذوي قرابته واصحابه القدامى، وسألهم اسئلة مهمة جمع عن طريقها مواد

قيمة، وجزئيات وتفاصيل كثيرة، واستفسرهم عن السنين، وضبط مراحل الدعوة وتطورات الحركة.

وقد حمل معه من مركز الدعوة بنظام الدين «بدلهي» مجموعة قيمة من الرسائل التي كتبها الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى كثير من اصحابه والتي ملأ به بعضا من الفراغ في سيرته، وكانت أكبر مجموعة من الرسائل وافضلها فيما يتعلق ببيان مباديء الدعوة وأصولها عند الشيخ نفسه، فقد كان الشيخ ـ رحمه الله ـ قد وجه أهم رسائله واكثرها توضيحا وتفصيلا في شرح دعوته وبيان حركته ـ في حدود علمي ـ إلى المؤلف نفسه، وقد استفاد منها المؤلف كل الافادة، كما بعث اليه كثير من الأحباب والأصدقاء ـ بعد علمهم باشتغاله بتأليف عن حياة الشيخ ـ بجملة رسائل الشيخ عندهم، وقد أفادت وأضافت مادة قيمة.

وأتت أكبر مساعدة وأنفعها في هذا الصدد من العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ فقد جمع المواد التاريخية المتعلقة بحياته بجد واهتمام وتحقيق، حتى صرفت احيانا الأيام والليالي في البحث عن سنة أو تاريخ لحادث والتحقيق فيه، واستخراج الأشياء والحلقات المفقودة من مذكراته، وأوراقه وكتاباته القديمة، وهكذا استكمل هذا الكتاب، ثم حصلت له مجموعة اخرى كبيرة عندما كان الكتاب ماثلا للطبعة الثانية باهتمام العلامة المرحوم وعنايته، وقد زيد فيها عدد كبير من المقتطفات في هذا الكتاب، نفخت في الكتاب روحا جديدة وأمدته بقوة عالية، وهكذا فقد كانت تأييدات من الله تترى في انجاز هذا العمل، واجتمعت له من المادة التاريخية ما لم يكن بالحسبان.

وبعد أن تمت المسوّدة وأصبحت معدة للطباعة، رأينا من الضرورة ان يعرض هذا الكتاب على اصحاب الشيخ القدامى ومن كانت له معرفة خاصة به، حتى نزداد ثقة واطمئنانا بأن كل ما جاء فيه من الأحداث والتصريحات تستند إلى اصل صحيح، وقد قريء ـ لأجل ذلك ـ هذا الكتاب في احدى رحلاتنا إلى ميوات في شهر ديسمبر عام ١٩٤٤ عدة مرات، وزيد في تهذيبه وتوثيقه.

والمؤلف ـ حفظه الله ـ كان من أجدر الناس وأقدرهم على تأليف كتاب في حياة الداعية الكبير الشيخ محمد الياس ـ رحمه الله، ـ فقد كان موضع ثقته وعطفه الخاص، لوجود روابط دينية ودعوية بين أسرة الشيخ وأسرة الشيخ أبي الحسن، وكان يقوم في كثير من الأحيان بدور المترجم والمعبر عن فكرته ودعوته بالخطابة في الجماهير، والحديث إلى العلماء ورجال التعليم الديني، والمثقفين بالثقافة العصرية، وقد جمع رسائله في كتاب مفرد واطلع الشيخ على ما كتبه الشيخ ابوالحسن في التعريف بمبادئه وأسس دعوته فارتضاه، ولذلك جاء هذا الكتاب في مكانه وأوانه وصدر عن قلم خبير، وكاتب بصير، تقبلّه الله ونفع به.

محمد منظور النعماني

لكناؤ، الهند

الباب الأول

مولده ونشأته، أسرته وبيئته، دراسته وتربيته

بسم الله الرحمن الرحيم

البـــاب الأول

مولده ونشأته، أسرته وبيئته، دراسته وتربيته

مولده ونشأته :

كانت ولادة الشيخ محمد الياس الكاندهلوي في سنة ١٣٠٣ هـ، وقد عاش أيام طفولته في خؤلته (في «كاندهله» (KANDHLA) احدى القرى الجامعة في مديرية «مظفرنكر» في ولاية «اترابرديش» بالهند)، وعند والده الشيخ محمد اسماعيل في «بستي نظام الدين» بدهلي الجديدة.

كانت أسرته مهد العلم والدين والورع، حتى أن قصص حرص السيدات في هذه الأسرة على العبادة والتلاوة والذكر، ومواظبتهن على الأوراد والتسبيحات، واحياؤهن الليالي، وقيامهن بتلاوة السور القرآنية، مما لا تسمو اليه همة كثير من الذكور في هذه الأيام، فقد كنّ يحافظن على السنن والنوافل بما فيها صلاة التراويح في رمضان، وكان شهر رمضان المبارك ربيع القرآن الكريم، حيث يتذوقن تلاوة القرآن ويتلذذن به.

وكانت المجالس والمحافل في هذه الأيام في داخل البيت وخارجه معمورة بقصص وحكايات العلامة الشيخ عبدالعزيز الأمام ولي الله الدهلوي، والسيد الأمام احمد بن عرفان الشهيد (١)، وقصص أسرتهما، كانت أحاديث تدور على الألسنة، والأمهات وربات البيت يتلون على الصغار هذه القصص الباعثة للروح والمثيرة للايمان والحنان، وذلك مكان القصص المسلية والسمر الممتع الملهي الذي اعتادته كثير من البيوتات والأسر.

والده :

والده هو العالم الرباني الشيخ محمد اسماعيل الذي ينتمي إلى أسرة كريمة عريقة في العلم والدين، ينتهي نسبها إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت اقامته بدلهي الجديدة، وأما مسقط رأسه ووطنه الأم «العريق فهو قرية : «جهنجهانه» (JHANJHANA) في مديرية «مظفرنكر» في ولاية «اترابراديش»، وقد تزوج بعد وفاة زوجته الأولى في أسرة معروفة بحب العلم والتمسك بالدين، يلتقي نسبهما (٢) في قرية «كاندهله» مما جعله يتردد اليها كثيرا، وصارت له كالوطن.

عاش حياته في العزلة والخمول والعبادة، وكانت العبادة والتلاوة، وخدمة الغادين والرائحين - من المسافرين، - وتعليم القرآن والدين، شغله الشاغل في ليله ونهاره، فقد كان على قمة من التواضع وانكار الذات، حتى إنه إذا رأى أجيرا كادحا يستثقل الحمل، ويشكو العطش، يضع حمله عنه بيديه، وينزع الماء بالدلو من البئر بنفسه، ويسقيه، ثم يركع ركعتين شكرا لله الذي وفقه لخدمة عباده دون جدارة واستحقاق،

يواظب على الأذكار والأدعية المأثورة في الحديث لمختلف الأوقات والأحوال، وعجنت طينته بحب الهدوء والسلام، ومعاشرة الناس في جو الحب والوئام والانسجام، فلم يشك من أحد قط، وظل موضع الحب والاعجاب والثقة من العلماء، وقاد مختلف طبقات المسلمين الذين كان بينهم خلاف شديد وكراهية متبادلة، لا يصلي بعضهم خلف بعض.

بداية الأتصال بمنطقة «ميوات» :

ولاتصاله بمنطقة «ميوات» (التي جعلها ابنها العظيم البار الرشيد الشيخ محمد الياس فيما بعد أكبر مجالات جهده الدعوي، وصبّ فيها عصارة محاولاته) قصة طريفة تبعث على الأذكار، وهي أنه خرج يوما يبحث عمن يجلبه إلى المسجد، ويصلي معه بالجماعة، فوقع بصره على عدد من المسلمين، فسألهم ماذا ينالون من الأجرة؟ فأشاروا إلى الكمية التي كانوا ينالونها في يومهم، فقالوا: أفما يغنيكم أن تجدوا هذه الكمية ههنا، ولا تتعبوا أنفسكم بذلك العمل ؟ فقالوا : ذلك ما نبغي، فأدخلهم المسجد، وجعل يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الصلاة، ويدفع اليهم الأجرة التي كانوا ينالونها يوميا، ويشغلهم بقراءة القرآن، وتعلم الصلاة وآدابها وأحكامها، حتى عودهم على الصلاة وخرّجهم عليها، فشغلوا بها عن العمل، وكان هؤلاء هم نواة مدرسة «مسجد الكوخ» التي ازدهرت فيما بعد، ومنذئذ ظل يتعلم فيها ١٠ ـ ١٢ ميواتيا على الأقل، يقيمون في المدرسة، ويأكلون من مائدة الشيخ محمد اسماعيل رحمه الله.

واستأثرت به رحمة الله في ٤ من شوال سنة ١٣١٥ هـ، الموافق ٢٦ من فبراير سنة ١٨٩٨م، وكانت جنازته مشهودة، صلى عليه الناس مرات عديدة، ومن شدة الزحام تأخّر دفنه كثيرا عن الوقت المحدد.

خلّف رحمه الله ثلاثة من البنين: الشيخ محمد ـ وهو أكبر أشقائه، وكان من زوجته الأولى ـ والشيخ محمد يحيى، والشيخ محمد الياس، من الزوجة الثانية.

أمـــــــه :

كانت أمه السيدة صفية حافظة للقرآن الكريم، وقد حفظته بعد الزواج، حين كان ابنها الشيخ محمد يحيى رضيعا، كانت تتلو القرآن كله، وعشرة أجزاء زيادة عليه كل يوم في شهر رمضان المبارك، وعلى ذلك فكانت تتلو القرآن في كل رمضان أربعين مرة، وذلك بجانب القيام بشئون البيت ووظائفه، بل كانت يداها مشغولتين بعمل من الأعمال وهي تتلو القرآن، وأما الأذكار الدائمة التي كانت تواظب عليها إلى جانب القيام بالعمل البيتي، فالانسان يقضي العجب منها، فقلما يقدر عليها رجل قوي متفرغ صاحب همة عالية وعزيمة.

طفولة الشيخ محمد الياس وثقافته البيتية :

تعلم الشيخ محمد الياس في الكُتّاب، وقرأ القرآن الكريم، كعادة الأطفال في أسرته، ثم حفظ القرآن في صباه، وكان تحفيظ القرآن عرفا متبعا في الأسرة، حتى ما كان يوجد في الصلاة بالجماعة في صف ونصف صف في المسجد المجاور غير حفاظ القرآن الكريم الا المؤذن وحده.

كانت توجد فيه منذ الصبا مسحة من روح وفاء الصحابة وولائهم، وقلق واضطراب، واحتراق للدين والدعوة، حتى كان العلامة الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند (شيخ الحديث بدار العلوم بديوبند سابقا) يقول: اني كلما أرى الشيخ الياس أتذكر الصحابة رضي الله عنهم.

جُبِلَ الشيخ محمد الياس على الحمية الدينية (التي زادت ونمت واتخذت صورة منظمة فيما بعد) ثم أشعلت الجمرة الأيمانية وأثارت الغيرة الدينية في قلبه بيئته التي نشأ فيها، وقصص العلماء الربانيين والمؤمنين الصادقين التي كانت تتلى في بيته، حتىً غدا تصدر عنه في صباه أعمال لا تصدر عادة عمّن كان في سنّه، يقول تربه، ورفيقه في الكُتّاب، الأستاذ رياض الأسلام الكاندهلوي: حينما كنا تلميذين في الكتّاب، جاء يوما بحطب، وقال: تعال يا أخي رياض الأسلام! نجاهد ضدّ التاركين للصلاة.

اقامته بكنكوه :

انتقل أخوه الأوسط مولانا محمد يحيى إلى العالم الربّاني المصلح الكبير الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي في قرية «كنكوه» في مديرية «سهارنفور» باترابراديش ـ الهند ـ ولازمه، يتعلّم ويتخرج في التزكية والتربية الروحية ، ويتشرب الدين.

أما الشيخ محمد الياس فظل يتقلب بين خؤولته في كاندهلة وبين بستي نظام الدين أولياء (٣) في دهلي، حيث كان والده مقيما لا يبرح، وكان من اقباله الكبير على العبادة، وعطف والده عليه، لا يتمكن من التعلم والدراسة، فعرض الشيخ محمد يحيى على والده أن يرسله معه إلى «كنكوه» لأنه لا يتمكن من الأقبال على الدراسة بصورة منظمة مشبعة، فسمح بذلك والده، وذهب إلى «كنكوه» في ١٣١٤ هـ أو في اوائل ١٣١٥ هـ يقرأ على أخيه.

كانت «كنكوه» عندئذ منتجع الصالحين والأتقياء والعلماء، وتمتع الشيخ محمد الياس بمعايشتهم وصحبة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، ولا تخفى على الحكماء وأهل الخبرة ما تمثل هذه المجالس والمحافل الدينية ومعاشرة الأخيار والأبرار من التأثير في القلوب والنفوس، واليد في اثارة العواطف الدينية واذكاء الفهم الدينيّ والشعور الأسلامي، كانت هذه البيئة التي عاشها الشيخ محمد الياس في مستقبل حياته، عاملا أساسيا في تكوين حياته الدينية والايمانية، أمضى فيها خير ايام حياته، التي يتأثر فيها المرء من الظروف والملابسات، والبيئة والمكان كثيرا، قدم «كنكوه» وهو في ١٠ أو ١١ من عمره، ولما توفى الشيخ الكنكوهي في ١٣٢٣هـ كان شابا يافعا في ٢٠ من سنّه، وعلى ذلك فقد قضى (رحمة الله عليه) عشر سنوات كوامل في صحبة الشيخ (رحمه الله).

كان أخوه الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي استاذا خبيرا، ومربيا محنكا، فركز عنايته على أن لا تحول دراسته النظامية بينه وبين الافادة من تلك المجالس الخيّرة، فقد روى الشيخ محمد الياس نفسه، إنه كلما كان العلماء والمتخرجون على الشيخ الكنكوهي يحضرون، فربما كان شقيقي محمد يحيى يوقف درسي، ويقول: ان درسك الآن أن تجلس إلى هؤلاء الشيوخ وأن تصغي إلى حديثهم.

بيعة الشيخ الكنكوهي والتخرج عليه في التربية والاحسان :

كان من عادة الشيخ الكنكوهي إنه ما كان يسمح لطلبة العلم بالبيعة، والذين هم يعيشون أيا التحصيل والدراسة ممن لم يبلغوا أشدهم، لكنه قبل بيعة الشيخ محمد الياس وهو متعلم نظراً إلى ما كا يتمتع به من الكفاءة الفنية، وتوطدت العلاقة بين الشيخ وتلميذه الروحي، وصار يحن كل منهما إلى الآخ حنانا لا يسمح أن يفارق صاحبه، مما مكّن الشيخ الياس أن يفيد افادة كاملة.

أسلوب الشيخ محمد يحيى في التعليم والتربية :

كانت طريقة الشيخ محمد يحي في التعليم والتربية طريقة مبتكرة، فما كان يدرس في المراحل البدائية الكتب الدراسية، بل كان يملي القواعد والمبادي، الصرفية والنحوية، على الترتيب والتدريج فكان يبدأ بالكلمات الخفيفة القصيرة إلى الصعبة الطويلة النفس، وكان يركز على اللغة والأدب والتضلع منهما منذ البداية، وكان أول ما يدرس في كتاب «جهل حديث» (مجموعة أربعين حديثا) لشيخ الاسلام أحمد بن عبدالرحيم المشهور بولي الله المحدث الدهلوي، والجزء الأخير من القرآن الكريم.

وكان يضغط على تعميق الصلاحية العلمية، وغرس حب الدراسة في قلب الطالب، وايجاد الهواية العلمية عنده، وما كان يعنى بانهاء المقررات الدراسية، وكان يهتم بأن لا يكون عند الطالب من الكتب الدراسية الا ما لا يتحلى بالحواشي والشروح، وما كان ينتقل بالطالب من كتاب إلى آخر الا حين يطمئن إلى أنه أصبح يقدر على فهم وتفهيم صفحات من الكتاب بدون معونة من استاذه، ويبذل عناية خاصة باتقان اللغة العربية، وتكوين الأستعداد العلمي، ومن هنا كان المتخرجون عليه يتسمون بروح الاتقان والتعمق، والكفاءة العلمية.

انحراف الصحة، وانقطاع الدراسة ثم الأقبال عليها بعد عودة الصحة

كان الشيخ ضئيل الجسم نحيله، وأصيب بانحراف في الصحة أيام اقامته بكنكوه في سبيل الدراسة والتحصيل، وأصيب بصداع في الرأس، صار لا يستطيع معه أن يحني رأسه، أو يسجد حتى على الوسادة، وظل يقاسي ذلك شهوراً طويلة، كان يداويه ابن الشيخ الكنكوهي الطبيب الأستاذ مسعود أحمد، الذي كان يسلك طريقة غريبة في العلاج، فكان يمنع المريض عن الماء، وكذلك كان مع الشيخ الياس، وظل يلتزم تلك الحمية ويتقيد بهذه الوصية الطبيّة (بفضل ما أوتي من قوة الصبر والصلابة، والعزيمة وقوة الأرادة، التي ظلت سمته في حياته) على حين تراجع المرضى أمام هذه الحمية القاسية، وظل سبع سنوات لا يصيب من الماء، وخمس سنوات لا يتناوله إلا قليلا.

ومن أجل هذا المرض المضني، ولا سيما الضعف الذي أصاب الذهن وقوة التفكير، انقطعت دراسته ولم يكن هناك رجاء في اتمام الدراسة فيما بعد، وكان الشيخ يساوره قلق دائم وحزن قائم من أجل هذا الحرمان، والأخوة المحبون يشيرون عليه باستجمام، ولما كثر طلبه للدراسة والحاحه عليها، قال له أخوه يحيى يوما: ماذا ينفعك أن تتعلم بعد هذا الضعف وانحراف الصحة؟ فأجاب: وماذا ينفعني أن أعيش جاهلا، وأخيرا استسلم الناس لالحاحه، وبدأ يتعلم للمرة الثانية.

وفاة الشيخ الكنكوهي :

في سنة ١٣٢٣ هـ انتقل الشيخ الكنكوهي إلى رحمة الله، ولما لفظ أنفاسه الأخيرة، كان الشيخ عند رأسه يتلو سورة يس (ياسين)، وقد أثّر هذا الحادث الأليم أبلغ تأثير وأعمقه على قلب الشيخ الياس، حتى كان يقول: أصابني في حياتي حزنان لا عهد لي بهما، حزن وفاة والدي، وحزن وفاة شيخي وسيدي الكنكوهي، ويقول: قد قضيت وطرى من البكاء، واستنفدت ماء الشئون حين وفاة سيدي الكنكوهي.

اتمام دراسة الحديث الشريف:

ارتحل في سنة ١٣٢٦ هـ إلى ديوبند، وحضر دروس العلامة الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند - رئيس هيئة التدريس وشيخ الحديث بدار العلوم ديوبند - في جامع الترمذي وصحيح البخاري.

وبعد ذلك بأعوام أتم دراسة الحديث، وقرأ بقية الصحاح الستة على أخيه الشيخ محمد يحيى في ظرف أربعة أشهر.

الاتصال بالشيخ خليل أحمد السهارنفوري:

وبعد وفاة الشيخ الكنكوهي اتصل بالشيخ خليل أحمد السهارنفوري - صاحب «بذل المجهود في حلّ ألفاظ أبي داوود - وبايعه (٤)، وذلك على اشارة من الشيخ محمود حسن رحمه الله، وتلقى التربية الروحية، وتخرج عليه في التزكية القلبية والاحسان.

الامعان في العبادة، والحرص على السنن والنوافل:

بعد ما توفي الشيخ الكنكوهي، أصبح الشيخ يقضي أوقاته في صمت وسكوت، حتى تمضي عليه أيام لا ينبس ببنت شفة، يقول الشيخ محمد زكريا بن يحيى: كنا نقرأ عليه الفارسية في هذه الأيام، وكنا نحضر بكتابنا الذي نقرأ فيه، وندله على موضع درسناً بالأصبع، ونمضي نقرأ، فإذا أخطانا في القراءة، أشار الينا بطرف اصبعه باغلاق الكتاب، وإنهاء الدرس، وكان غرضه من ذلك أن نعيد المطالعة والنظر في الكتاب، ثم نحضر من جديد.

وكان في هذه الأيام يكثر من صلاة النفل، يقضي الفترة فيما بين المغرب والعشاء في الصلاة، وكانت سنة حين ذاك تتراوح بين ٢٠ - ٢٥ سنة.

عاطفة الجهاد :

كانت عاطفة الجهاد مشتعلة في قلبه بجانب الأكثار من الذكر والسنن والنوافل والعيش في العبادة، والمتصلون به يعرفون أن دوراً من أدوار حياته لم يخل من تلك العاطفة، وحماسة الجهاد والعزيمة مما دفعه إلى أن يبايع الشيخ محمود حسن بيعة الجهاد.

مكانته فيما بين العلماء والمشايخ :

كان موضع احترام فيما بين المشايخ والعلماء، يحترمه الكبار ويجلونه رغم صغر سنّه، كان الشيخ

يحيى - أخوه الأوسط - أكبر منه سناً، وما كان يعامله معاملة الكبير مع الصغير، بل كان في سلوكه معه اجلال وتقدير.

كان نحيل الجسم، فما يستطيع أن يقوم بأشغال تتطلب المشاقّ وإجهاد الجسم، وإنما يقضي أوقاته في عبادة ربه ودراسة الكتب، وأما مولانا محمد يحيى فكان رجل جدّ وكدّ، يقدر على تحمل الصعوبة والكدح الجسماني، كانت لهم مكتبة تجارية وكانت هي الوسيلة الوحيدة التي تدر لهم الرزق، وتوفر لهم المعاش، والشيخ يحيى وحده يتولى ادارتها والاشراف عليها، والقيام بأمورها، قال له يوماً رجل يقوم بأعمال هذه المكتبة في حب واخلاص: ان الشيخ الياس لا يسهم في عملنا، فلماذا لا تُحمّله مسئولية تضطره إلى العمل، لأنه كذلك ينتفع بالمكتبة، وتلقى الشيخ يحيى هذا الأقتراح بكراهية شديدة، وقال: أو ما تعلمون أنه قد جاء في الحديث: «هل ترزقون وتنصرون الا بضعفائكم (٥)، اعتقد أني إنما أرزق بهذا الولد.

كان الكبار من العلماء والمشايخ يعرفون تقواه وورعه وروح الأنابة التي كان يمتاز بها، فكانوا يقدمونه للامامة بالناس في الصلاة على ملأ من كبار العلماء، فقد اتفق انه اجتمع في «كاندهله» كل من المربي الكبير الشيخ عبدالرحيم الرائفوري، والشيخ المحدث الكبير خليل أحمد السهارنفوري، والشيخ الكبير أشرف علي التهانوي، ووافاهم وقت صلاة العصر، وقدّموا الشيخ الياس ليؤم بهم، فقال الأستاذ بدر الحسن - أحد كبار الأسرة - ممازحا: ما أطول القطار وأثقله، وما أخف القاطرة، فأجاب أحد الحاضرين: ولكن القاطرة قوية على خفتها.

التدريس في مدرسة «مظاهر علوم» بمدينة سهارنفور:

في شوال عام ١٣٢٨هـ قام معظم أساتذة مدرسة مظاهر علوم برحلة الحج والزيارة، وعُيّن مكانهم كثير من المدرسين الجدد، وبهذه المناسبة تم إختيار الشيخ مدرسا فيها، وبعد عودة الأساتذة القدامى من رحلة الحج، استقال المدرسون الجدد، ولكن الشيخ بقي مدرسا فيها.

وكلّف في هذه المدرسة تدريس كتب دراسية ما قرأها على الأساتذة في دور التحصيل، ولكنه نجح كل النجاح في عمله التدريسي، بفضل جهده البالغ وكفاءته العلمية وشغفه بالدراسة والمطالعة، ورجوعه إلى التعليقات والشروح الطويلة.

الزواج:

كان زواجه في ٦ من ذي القعدة سنة ١٣٣٠ هـ الموافق ١٧ من اكتوبر سنة ١٩١٢م بعد صلاة عصر يوم الجمعة المبارك في «كاندهله» على بنت الشيخ رؤوف الحسن، وحضر تلك المناسبة السعيدة زبدة العلماء والمشايخ، أمثال الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، والشيخ عبدالرحيم الرائفوري، والشيخ أشرف علي التهانوي، وألقى الشيخ أشرف علي التهانوي بهذه المناسبة خطبة قيمة بعنوان: «فوائد الصحبة» تكرر طبعها وتوزيعها.

حجته الأولى:

أراد الشيخ خليل أحمد السهارنفوري في سنة ١٣٣٣هـ أن يرتحل للحج، وكذلك بعض كبار العلماء والمربّين، ولما بلغ الشيخ الياس هذا الخبر ثار فيه الحنين إلى الحج وبرحيه الشوق، يقول اني أرى الهند مظلمة بعد مغادرة أمثال هؤلاء العلماء، وكان يحول بينه وبين تحقيق تلك الأمنية العزيزة اللذيذة، عوائق وصعوبات، في مقدمتها الحصول على السماح من الوالدة الموقرة، والأخ الأوسط الشيخ محمد يحيى، ثم توفير النفقة وما تكلفه الرحلة الكريمة، ولكن الله الحكيم يسّر له المهمة، وذلل له الصعاب، ووفّر له كل سهولة واستطاع أن يحوز هذه السعادة، ويعود إلى الهند في ربيع الثاني سنة ١٣٣٣ هـ، وظل مشغولا بعمل التدريس في المدرسة المذكورة أعلاه.

وفاة الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي:

في ١٠ من ذي القعدة سنة ١٣٣٤ هـ انتقل شقيقه الأوسط الشيخ محمد يحيى إلى رحمة الله، ونزلت هذه الكارثة كالصاعقة على الشيخ محمد الياس، وكانت محنة لصبره وقوة تماسكه، لانه لم يكن شقيقه فحسب، بل كان كذلك مربّيه وشيخه العطوف وأستاذه الشفوق، وقد شاطره هذا الحزن المرير جميع أحبائه ودائرة أصدقائه والمرتبطين به بوجه من الوجوه، فقد كان الشيخ محمد يحيى موضع الحب والتقدير - من أجل مزاياه وخصائصه الكثيرة - بين الأنام، ولكن الشيخ محمد الياس لم ينس مرارة هذا الحزن قط وبقى يعضه ويدمي قلبه، ويؤلم نفسه طول حياته، وكلما تذكره أثار في قلبه ذكريات حزينة، واندفع يذكر صفاته وفضله، وغناءه في لذة تفوق الوصف، وكأنه يغيب عما حوله، وينسى كل ما عنده سوى الشيخ محمد يحيى، وما يتعلق به، وكان يخص بالذكر شموله وما كان يمتاز به من حب المسالة، وروح الأعتدال والتوازن وموهبته للجمع بين العناصر المتضادة والأجناس المتصارعة، وذكاءه العجيب، وصحة فهمه وسلامة طبعه، رحمهما الله تعالى.

---

(١) قائد حركة الأصلاح والجهاد الكبرى في القرن الثالث عشر الهجري في الهند، ليرجع إلى كتاب المؤلف «إذا هبت ريح الأيمان» ورسالة : «الامام الذي لم يُوفّ حقه من الأنصاف والاعتراف «طبع دار الرسالة في بيروت، وطبع «المجمع الأسلامي العلمي» في الهند.

(٢) كان كبير هذه الأسرة ومن أعلامها ورجال القرن الثالث عشر الهجري الكبار، المفتي إلهي بخش الكاندهلوي، من كبار تلاميذ مسند الهند الأمام عبدالعزيز (ابن الأمام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي المشهور بولي الله الدهلوي المُحدّث) ولد في ١١٦٢هـ، وتوفى في ١٢٤٥ هـ، كان المرجع في الفتوى، يقول الشعر بالعربية والفارسية، والأردية، وله نحو أربعين مؤلفا بالعربية والفارسية، راجع السيد الأمام أحمد بن عرفان الشهيد في شيخوخته، واتصل به اتصالا وثيقا مما يدل على اخلاصه وعلو همته.

(٣) اسم الحي المشهور في دهلي.

(٤) كانت البيعة - ولا تزال عند الشيوخ المربين الراسخين في العقيدة الصحيحة والعلم بالكتاب والسنة - توبة من الكفر والشرك والمعاصي والبدع، وعقد عزيمة على اتباع الكتاب والسنة والفرائض الدينية، والاذكار المأثورة، وفي ذلك تشحيذ للعزم وتجديد للايمان والربط بالله والرسول، وقد نفع الله بذلك خلقا كثيراً لا يعد ولا يحصى، لم يكن لهم طريق ميسر لتجديد الايمان، والربط الوثيق بالدين، خصوصا في البلاد العجمية والبيئات الموبوءة، الا هذا الطريق.

(٥) رواه البخاري مرسلا، والحافظ أبوبكر البرقاني متصلاً.

الباب الثاني

الاقامة في بستي نظام الدين في دلهي والعمل التدريسي، وادارة المدرسة

البـــاب الثـــاني

الاقامة في «بستى نظام الدين» في دلهي، والعمل التدريسي، وادارة المدرسة ووفاة الشيخ محمد :

وبعد وفاة الشيخ محمد يحيى، وافى الشيخ محمد الأجل ـ وهو أخوه الاكبر ـ في ليلة الجمعة ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٣٦ هـ.

كان الشيخ محمد مثالا للحلم والتواضع، والرأفة والرحمة، والخشية والانابة، يصدق عليه قول الله تبارك وتعالى : «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»(*) يحب العزلة، ويعيش في الانقطاع، لم يؤذ أحدا بيد أو بلسان، لا يهمه الا عمله، يعيش حياة البساطة والزهد والقناعة، ينوب عن والده ويخلفه في «مسجد الكوخ» (١)، في بستي نظام الدين بدلهي الجديدة، فقد كانت هناك مدرسة بدائية أسسها والده، يتعلم في الأغلب طلّاب من «ميوات»، وكان الاتكال على الله والانابة اليه هو رأس مال تلك المدرسة.

اقتراح الاخوة بانتقاله إلى «نظام الدين» :

كان الشيخ محمد الياس مقيما في دلهي لخدمة أخيه المريض مولانا محمد، وكانا نازلين في حارة «قصاب بوره» في دلهي القديمة، في المسجد الذي يدعى بـ «نواب والي مسجد» (مسجد النواب) وفيه توفى الشيخ محمد، وحمل جثمانه إلى «نظام الدين» ودفن بها.

وبعد وفاة الشيخ محمد، أصر المحبّون والمخلصون على الشيخ محمد الياس أن يقيم في «نظام الدين»، ويخلف أباه وأخاه في التعليم والتربية، ويملأ الفراغ الذي وقع بوفاتهما في هذه المنطقة، التي تقع فيها المدرسة التي بناها والده، وعمرها أخوه، وأكد الحاضرون أنهم لا يألون جهدا في تقديم أية معونة تحتاج اليها المدرسة، وفعلا قد فرضوا مبالغ يقدمونها شهريا بانتظام وقد رضى الشيخ الياس بقبولها في ضوء مبادىء وشروط التزمها إلى آخر حياته، أما انتقاله إلى «نظام الدين» واقامته المستقلة فيها، واستقالته من مدرسة «مظاهر علوم» بسهارنفور التي كان مدرسا فيها فانه علق كل ذلك على اذن الشيخ خليل احمد السهارنفوري.

وبعد انتهائه من دفن أخيه مضى إلى «سهارنفور» وأخبر الشيخ السهارنفوري بالوضع الذي كان يواجهه، وسمح الشيخ السهارنفوري بارتحاله إلى نظام الدين نظرا إلى المصالح الدينية، وبفعل الحاح الأخوة المحبين، لكنه اشار عليه بأن لا يستقيل من «مظاهر علوم» ويقدم طلبا باجازة سنة كاملة، فإذا طابت الاقامة بنظام الدين، واستتبّ الرأي على ذلك فانه يمكن الانقطاع الكلي من المدرسة في كل وقت.

وقوع انحراف خطير في الصحة :

وأخذ الشيخ برأي الشيخ السهارنفوري، وقدّم الطلب إلى عميد المدرسة، وجعل يستعد للارتحال إلى

نظام الدين، إذ ألم به مرض شديد، وانطلق في الثاني من جمادي الأولى سنة ١٣٣٦هـ من «سهارنفور» إلى «كاندهله» واشتد المرض بكاندهله وأصيب بدورة مرض «ذات الجنب» الشديدة، جعلت الأسرة تقطع الرجاء من حياته، وتخاذل جريان الدم في العروق، وبردت يداه ورجلاه، وجعل الناس يرددون «إنا لله وإنا إليه راجعون» لكن الله الكريم الحليم تكرم عليه بالافاقة، وبدأت الحالة تتحسن، وعادت اليه صحته كاملة بعد أيام، لأن الله قدر أن يجري على يديه الخير الكثير، ويتم عن طريقه عمل ديني دعوي كبير.

ارتحاله إلى «نظام الدين» :

وبعد ما عوفي ارتحل إلى نظام الدين، وكانت تلك المنطقة مقفرة تتعطّش إلى السكان، وكان المسجد محاطا بالغابة الموحشة، والأشجار الكثيفة، يحكي الأستاذ احتشام الحسن، الذي كان يعيش مع الشيخ منذ صباه، الخبر فيقول :

«كنت أخرج من المسجد أبحث عن إنسان، أقر برؤيته عيني، وأمتع نظري، وأؤلف قلبي، فلئن وقع نظري على إنسان، كنت أفرح فرح من أهدى إليه هدية مستطرفة غالية، ولم يكن هناك الا مسجد من الجص والآجر وكوخ، وحجرة، ومباني في ناحية الجنوب من ضريح الشيخ الكبير نظام الدين الذي يقع على غلوة من المسجد يقيم فيها طوافون حول الضريح، ومدرسة في المسجد بناه والد الشيخ، وطلاب من «ميوات» وغير «ميوات»، كل ذلك كان مادة العمران لتلك المنطقة الواسعة».

لم تكن للمدرسة موارد مستقلة تسير بها عجلتها، وكان الاعتماد على الله، والثقة بعونه وعلو همة عميدها، هو كل ما يحرك دفتها، كانوا يعيشون في خشونة وضيق، قد لا يجدون ما يسدون به رمقهم ويقيمون به صلبهم، لكن الشيخ كان راضيا مسرورا، لا تدهشه الضراء ولا تزعجه الفاقة، ولا يفت في عضد همته ضيق العيش، وقد يقول للطلبة في صراحة أنه لا يوجد اليوم قوت، فمن شاء فليقم، ومن شاء فليرتحل، وما كان أحد تحدثه نفسه بمغادرة المدرسة، بفضل التربية الروحية التي كانوا يتلقونها، قد يصيبون من ثمار أشجار الغابة، ويقضون بها حاجتهم إلى الطعام، ويحتطبون بأنفسهم في الغابة ويخبزون بها بأيديهم، وقد يتناولون الخبز بدون إدام بملح وغيره، غير أن الشيخ لم يكن تنال منه صعوبة الحياة هذه، وكان يخوف زملاءه من السعة التي كان يرجوها بعد هذا الضيق، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وما كان يهتم بتحسين ظاهر المدرسة، وتشييد المباني، وقد بنى بعض تجار دهلي على محاولة زميله القديم وأحد طلاب المدرسة القدامى الحاج عبدالرحمن (٢) حجرات في فرصة غياب الشيخ عن «نظام الدين»، ولما عاد الشيخ الياس إلى نظام الدين، ورأى البناء الجديد، سخط كثيرا، ولم يحادث الشيخ عبدالرحمن إلى مدة، وقال إن التعليم هو كل شيء في المدرسة، وقد جربت أن التعليم إنهار منذ أن ارتفع البناء في المدرسة الفلانية.

وقد أتاه مرة تاجر كبير في دهلي، يلتمس منه الدعاء، وقدم اليه مبلغا كبيرا، فأبى أن يقبله، ولكن

الشيخ عبدالرحمن قبله نظرا إلى ضرورات المدرسة ولما اطلع الشيخ على ذلك أصبح في قلق واضطراب ولم يقر له قرار حتى أعاد المبلغ إلى صاحبه، كان يقول للشيخ عبدالرحمن، إن العمل الدعوي والديني لا يتم بالروبيات والمال، ولو كان كذلك لأوتي النبي الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله وسلم كمية موفورة من المال والثروة.

العبادة والمجاهدة :

وكانت تلك الأيام أيام عبادته، ومجاهدته، وذوق انابته، وكان ذوق العبادة قد توارثه من سلفه وتجلى في أيام اقامته بنظام الدين أكثر من ذي قبل، يقضي معظم أوقاته في الخلوة ومناجاة الله.

وإذا أراد أن يبدأ درس الحديث الشريف توضأ، ثم صلى ركعتين، ويقول : إن حرمة الحديث وعظمته تتطلبان أكثر من ذلك، وذلك أقل ما يجب أن يصنعه المشغولون به، ولا يقطع درس الحديث الشريف بالكلام والحديث مع الناس، ولا يلتفت إلى أحد جاء في موعد الدرس مهما كان عظيما.

الانهماك في التعليم وتربية الطلاب :

كان يُعنى عناية كاملة بالدروس، وتربية الطلاب، يدرس الطلاب في اجتهاد بالغ، وقد يدرس في «مستدرك الحاكم» قبل صلاة الصبح.

كان له رأي خاص، وأسلوب شخصي في التعليم والتربية، يُركزّ على المطالعة والتحضير، ويقول لابد أن ينظر الطلاب في الدرس قبل القراءة على الأستاذ نظرة عميقة حتى لا تبقى حاجة إلى وضع الاصبع والتصحيح، أو الارشاد والتوجيه، ويبذل اهتماما كبيرا باتقان اللغة العربية وآدابها وتنفيذ قواعدها ومبادئها من الصرف والنحو عمليا، وما كان يتقيد بالمقررات الدراسية في عامة المدارس في الهند، فقد يدرس كتبا لا تتداولها مدارس أخرى، ويختار أساليب جديدة مفيدة، تقرب الفهم والاساغة إلى الطلاب، وتيسر عليهم مهمة الحفظ والاستظهار.

---

(١) هو الأسم المشهور للمسجد لبساطته وابتعاهده عن الزخرفة والفخامة.

(٢) ولد الحاج عبدالرحمن في بيت هندوكي في «ميوات» وتشرف في صباه برؤية سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأسلم على يدي الشيخ محمد ـ أخ الشيخ محمد الياس الاكبر ـ وتعلم الدين وقرأ القرآن عليه في مدرسته بـ «نظام الدين»، وبايع الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، وظل عون الشيخ محمد ويده اليمنى ومستشاره، طول حياته، ونصير الشيخ الياس وزميله في عمله الديني من بعده، وكان الشيخ يثني عليه كثيرا، ويشيد بذكره ويراه يد دعوته وحركته.

وكان يمتاز بعرض الدعوة في غير المسلمين، وكان له ذوق خاص في هذه الناحية، وكان حكيم «ميوات» الأسلامي، أسلم على يديه أكثر من ألف انسان، وأسس لهؤلاء مدرسة خاصة في «سنكار» ومن مآثره العظيمة تطهير المجتمع الميواتي من التقاليد الغير الأسلامية، توفى في ١٣٦٤هـ..

الباب الثالث

بداية عملية الاصلاح والدعوة والتعليم والتبليغ في منطقة ميوات

الباب الثالث

بداية عملية الاصلاح والدعوة والتعليم والتبليغ في منطقة «ميوات»

منطقة ميوات :

المنطقة التي تقع في جنوبي عاصمة دهلي، والتي يقطنها أمة «ميو» تدعى بـ «ميوات»، وتشتمل على مديرية «جورجانوه» (GURGAWAN) ، وامارات «ألور» (AL WER) و«بهرت بور» (BHARATPUR) الهندوكية، وناحية من مديرية «متهرا» (MATHURA) احدى مديريات الولايات المتحدة لاكره وأوده» في الهند، وظلت حدود هذه المنطقة تختلف انضواءا وامتدادا كحدود جميع المناطق في العالم، فقد كانت في القديم مختلفة عما هي عليه اليوم.

أمة «ميو» :

يذهب المؤرخون إلى أن أمة «ميو» تنحدر من سلالة هندية عريقة ولا يمتّون إلى السلالة «الآرية» بصلة، وعلى ذلك فان تاريخهم أعرق وأذهب في أعماق التاريخ من أسر راجبوت الهندية المنحدرة من السلالة «الآرية».

كانت أمة (ميو) منبع الفساد والايذاء، والنهب في أول أمر الدولة الأسلامية في دهلي، يسومون الناس سوء العذاب، ويصبون عليهم أشد النكال، ويغيرون على دهلي من خلال الغابات المترامية الكثيفة، وكانت أبواب أسوار المدينة تغلق قبل أن يمد الليل رواقه اتقاء لشرهم، ولا تحدث نفس أحد بالخروج من الاسوار، وكانوا يدخلون المدينة بحيلة أو بأخرى، ويتحينون فرص النهب والغارة، وكان أهل المدينة في قلق من أمرهم، ويعيشون وضعا مخوفا مستمرا، فوجه اليهم غياث الدين بلبن (م ٦٨٦ هـ) جيشا كبيرا، يغزوهم ويسكت نأمة شرهم، فقتل منهم عدد وجيه، ونصبت مراكز الخفارة في أرجاء المدينة، يقوم بعمل الخفارة فيها «الأفغان» القوم الذين عرفوا ببطولاتهم ومغامراتهم وقطعت الغابات حول دهلي برجال العسكر، وحولت إلى مزارع وحقول (١)، وبعد ذلك يسكت التاريخ عن ذكر ميوات طيلة قرن.

بعد تلك الفترة الطويلة، ظل المحاربون الميواتيون المغامير يريقون دم أهل دهلي ويقلقون بال الحكومة المركزية، مما أحوجها إلى القيام بالاجراءات الأصلاحية الرادعة ضدهم، ويخص التاريخ بالذكر منهم - في هذا الشأن -، البطل الطموح «ناهر» وخلفاءه الذين اقاموا حكومة مستقلة لهم في ميوات بطولتهم ومجهودهم الكبير، تحولت إلى امارة و«اقطاعية» بعد ما غزتها الحكومة المركزية في دهلي، ويأتي في هذا الصدد ذكر «لكهن بال» (LAKKHAN PAL) المعروف بحروبه ومغامراته، الذي وضع يده على منطقة «ميوات» وضواحيها تقريبا، وأسلم في عهد فيروزشاه (م ٧٩٩هـ)

أما أمة «ميو» فمتى أسلمت، وما الحوادث والوقائع، أو ما العوامل التي دفعتها إلى الدخول في

حظيرة الأسلام، ثم أن الأمة كلها أو جلها، أسلمت مرة واحدة أو تدريجيا في ظرف قرون؟ انها أسئلة لا يمكن الأجابة المشبعة عليها، لأن تاريخ تلك الأمة البدائي، ولا سيما تاريخ اسلامها في ظلام متكاثف، وليس هناك مصدر يمكن الأستناد اليه (٢)، والاعتماد عليه الا الروايات والحكايات التي تتضارب هي الأخرى.

وضع أمة «ميو» الديني والخلقي :

بلغت أمة ميو من الأنحطاط الديني - بحكم تهاون المسلمين فيما يتعلق بشأنهم وجهل أمة ميو - إلى نهاية ليس بعدها الا الردة القومية ، وقد شعر المؤرخون من غير المسلمين أيضا (الذين كان ينبغي أن يكون شعورهم في هذا الشأن أقل وأبلد من شعور المسلمين) ببعد ميو عن الأسلام، ونقدم فيما يلي مقتطفا يدل على غاية الأنهيار الديني والخلقي، والبعد عن الأسلام وقلة الأنتباه لما يتصل به.

يقول الرائد MAJOR «باؤلت» الذي كان ضابط الادارة في منطقة «ألور» (AL WER) في المعجم الجغرافي GAZETTEER لمنطقة «ألور» الصادر في سنة ١٩٧٨م.

كان أهل «منطقة» ميوات مسلمين الا قليلا، لكن أصنام قراهم هي نفس أصنام المُلّاك من الهنادك، يحتفلون بكثير من أعياد الهنادك، اما أيام العيد الكبير «هولي» (HOLY) فهي ايام هزل ومزاح، وتحرر وانطلاق، وهو من أهم الأعياد عند الهنادك كالمحرم وعيد الفطر، والخامس عشر من شعبان عند المسلمين، وكذلك يحتفلون بـ «جنم اشتمي» و«دسهرا» و«ديوالي» ويوجد عندهم ناسك برهمي لكتابة «بيلي جهتي» واختيار تاريخ الزواج، ويتسمون بأسماء هندوكية الا كلمة «رام» ويكثرون من الحاق كلمة «الخان» في نهاية أسمائهم، ولكن اعجاز أسمائهم زاخرة بكلمة «سنكه» ويحتفلون في منطقة «اماوس» اتباعا للطبقات الهندوكية المتخلفة في الأحتفال بالعطلة وينفضون أيديهم من العمل كليا، وعند ما يحفرون بئرا فيبدؤن بصنع صفّة باسم «بروجي» أو «هنومان» ولكنهم حينما يريدون النهب والغارة فلا يبالون بقدسية الأمكنة الهندوكية المقدسة، ومعابد الهنادك ولئن لفتت أنظارهم بتلك المناسبة إلى قدسيتها، يقولون في صراحة وبدون تأجيل : أنتم «ديو» (صنم) ونحن «ميو»، ان «ميو» في جهل أي جهل بدينهم (الاسلام) لا يوجد من يعرف كلمة «لا اله الا الله» إلا القليل النادر، وأما المصلون فهم في عدد أقل من ذلك، ولا يعرفون شيئا من احكام الصلاة ولا مواقيتها.

وكل ما أسلفنا إلى ههنا فهو يتعلق بـ «ألور» وأهلها ميو، أما المنطقة الأنجليزية (مديرية «جورجانوه») فان الوضع المتعلق بشأن التقيد بالواجبات الدينية جيد إلى حد ما من أجل المدارس وكذلك في بعض الأمكنة من «ألور» التي توجد فيها مساجد، فان الألتزام بالواجبات الدينية أكثر من غيرها، وبعضهم يعرفون كلمة «لا اله الا الله» وبعضهم يصلون أيضا، وبعضهم يميلون إلى الحصول على الثقافة والالتحاق بالمدارس، وكما أسلفنا فان الأجراءات الأولية في الزواج يشاركها البراهمة، لكن الأجراءات الجذرية يقوم بها القاضي، أما الملابس، فان الرجل يرتدي «دهوتي» و«كمري» والسروال وعلى ذلك فان ملابسهم هندوكية في الواقع وقد يستخدم الرجل حلي الذهب.

ويقول في موضع آخر :

«ان «ميو» أشباه الهنادك في عادتهم، تشذ المساجد في قراهم، ففي محافظة «تجارة» لا توج مساجد في قريتيهم الاثنتين والخمسين الا ثمانية مساجد، نعم توجد لديهم معابد كمعابد مساكينهم الهنادك، يقدمون اليها القرابين كصنيع الهنادك ويعبدون في الخامس عشر من شعبان في كل قرية الأعلا باسم السيد سالار مسعود غازي (٣).

وجاء في معجم مديرية جورجانوه الجغرافي الصادر في ١٩١٠م :

«لا يزال أهل «ميو» حتى الآن متخاذلين ولامبالين جدا فيما يتعلق بالاسلام، انهم يشاركون جيرانهم في معظم التقاليد والأعراف ولا سيما التقاليد التي تبعث اللذة والسرور، يبدو أن مبادئهم أن يحتفلوا بأعيادهم وأعياد الهنادك، ولا يقومون بواجبات احدى الديانتين، ووجد منذ مدة قريبة دعاة دينيون، وبدأ بعض «ميو» يصومون رمضان ويبنون المساجد في القرى ويصلون، وبدأت نساؤهم يستبدلن بملابسهن الهندوكية سراويل، وكل ذلك من تباشير النهضة الدينية».

وجاء في معجم «بهرت بور» :

«ان تقاليد «ميو» مركبة من تقاليد الهنادك والمسلمين، فهم يختتنون وينكحون، ويدفنون موتاهم ويؤمون بهرائج (BAHRAICH) يزورون ضريح السيد سالار مسعود غازي (٤)، والحلف الذي يتم تحت العلم الذي باسمه يرونه أمتن الأحلاف، ويرون البر به من أكبر الواجبات، ويقومون بالرحلة إلى أمكنة مقدسة أخرى في الهند، يزورونها ويتبركون بها، ولكنهم لا يقومون برحلة الحج أبدا، وأما اعياد الهنادك فهم يحتفلون بـ «هولي» و«ديوالي» ولا يتزوجون في أسرة واحدة، ولا يورثون المرأة، ويسمون الأطفال باسماء هندوكية اسلامية، وكلهم جاهلون غير مثقفين، ويوجد فيهم مغنون، يمنحونهم جوائز ثمينة ويكرمونهم بمبالغ كبيرة، وهناك أغاني تتعلق بالحياة الريفية والفلاحية ومواضع الزراعة، ينشدونها في لذة وطرب، أما لغتهم فهي شديدة اللهجة، ولا يختلف الخطاب للرجل والمرأة، ولا توجد صيغ على حدة لكل منهما، ولديهم عادة استخدام المسكرات والمواد التي تبعث النشاط، وهم متوهمون، ضعيفوا الأيمان واليقين، ميالون إلى الأوهام والظن والتخمين ولكن الآن لم تعد تلك العادة، وكان النهب والغارة حرفتهم، ولئن كانوا قد تساموا عن ذلك، وبخلهم الأصلاح، لكنهم معروفون بسرقة الحيوانات والبهائم والثور والبقر».

مزايا «ميو» القومية :

وعلى الرغم من هذا الانحطاط الديني والتفسخ الخلقي، فان هذه الأمة تتمتع بمزايا وعادات وخصائص وصفات، لا يتميز بها الا الأمم الكريمة، وكذلك فان المفاسد الخلقية، والنقائص التي دخلت فيها، هي مما ينشأ في الأمم ذات البطولة والشهامة والطموح، بفقدان التوعية والتربية الدينية، والجهل، والانقطاع عن العالم المتمدن والجهل بالدين، ذلك الذي كان قد نشأ في العرب في الجاهلية، فقد اتجهت المحاسن والمواهب الطبيعية اتجاها شاذا من أجل فساد المجتمع وتحولت الشجاعة والجرأة القومية إلى عادة النهب والغارة وقطع الطريق، والبطولة والمغامرة تجلتا في الحروب الداخلية والتحارب والتصرع اذ لم

يجدا مجالا لائقا توضع فيه، وكذلك لم تستخدم الغيرة والحمية الطبيعية في موضعها، فتحولت حمية جاهلية واستخدمت في الأحتفاظ بالكرامة المصطنعة ومعايير وموازين مخترعة، واخطئت بالشهامة والطموح مواضعهما، فكان لهما صولة وجولة في الأعمال القومية التافهة، ولم يستخدم الذكاء والنشاط والفطانة استخداما طبيعيا كريما فكان لذلك كله عمله في العمليات الأجرامية، والأعمال غير الشرعية وخرق عصا الطاعة، على كل فكانت المواهب تضيع هدرا، في اغراض تافهة، ولكن الأمة لم تتجرد من الكفاءة الطبيعية.

فقد كانت ـ ولا تزال ـ البساطة، والمجاهدة، والعزم، والفعالية، والصلابة، والأصالة هي التي يمتاز بها الميواتي عن المسلمين من سكان المدن والقرى المتمدنة، وكان الصلابة والاصالة هما اللتان حالتا بينهم وبين الردة، حتى حين تباعدوا عن الأسلام إلى آخر غاية، وهبّت عواصف التقاليد الهندوكية فيهم إلى آخر نهاية.

ومن مزايا هذه الأمة أنها ظلت في حظيرة الجهل والخمول مدة قرون، تعيش في عزلة عن العالم مهجورة مطمورة، مجهولة مغمورة، ولا نجد في تاريخ الهند الطويل أمة في هذا العدد الهائل تعيش على غلوة من العاصمة المركزية، وتكون خاملة مجهولة إلى هذا المدى، وكانت نتيجة ذلك أنه قلما ضاعت قواها الفكرية والعملية، وبقيت مصونة منخورة إلى حد كبير، وإذا كانت ألواح قلوبهم خالية من رسوم الصلاح والفلاح، والفضل والكمال والحسن والجمال، فأنها بقيت صافية من كتابات خاطئة مميتة دقيقة يستعصي محوها، وتتعسر ازالتها، وكأن هذا الحقل لم يزرع بعد، ولم تمسه يد الفلاح اما العادات الفاسدة، والأوهام الخاطئة، والتقاليد الجاهلية، والأعراف الهندوكية، فكانت كالزبد يذهب جفاءا، أو كغثاء السيل ماله من قرار، أو كحشائش شيطانية متطفلة نبتت على أرض مهجورة منذ قرون طويلة، وكانت هذه الأمة في القرن الرابع عشر الهجري أشبه ما تكون بالعرب في الجاهلية.

الاتصال بأمة «ميو» :

قد أسلفنا أن الاتصال بميوات، كان قد بدأ في حين حياة الشيخ محمد اسماعيل والد الشيخ محمد الياس، ولم يكن هذا الاتصال أمرا اتفاقيا رهين الصدفة، بل كان تقدير الله العزيز الحكيم العليم، حيث الهم الشيخ محمد اسماعيل أن يلقى عصا الغربة في بستي نظام الدين باب ميوات ومدخلها، وبذلك فبذر الله حُبّ الأسرة الكريمة التي ينتمي اليها الشيخ محمد الياس في قلوب سكان ميوات، حتى أصبحوا يرتمون في حضنه مدفوعين بالحب والودّ، يحدوهم الأعجاب والتقدير وهم أولئك الذين لم يستطع الملوك والسلاطين أصحاب الجنود والبنود، والسلطة المطلقة، والسيطرة المخوفة أن يسخروهم ويكبتوا من جماحهم ويخففوا من غلوائهم.

وعلى كل فلما علم أهل الميوات أن المكان الشاغر بموت الشيخ محمد اسماعيل والشيخ محمد عاد مشغولا بالشيخ محمد الياس ـ ابن الشيخ محمد اسماعيل وأخي الشيخ محمد ـ بدأوا يترددون إلى نظام الدين من جديد، وأكثروا من الأختلاط والاحتكاك، وعرضوا على الشيخ الياس أن يشرفهم بزيارة منطقتهم ويمنحهم فرص الأستفادة.

التعليم الديني هو العلاج الوحيد :

كان الشيخ محمد الياس يرى أن الطريق الوحيد لاصلاح «ميوات» هو بثّ التعليم الديني في المجتم الميواتي، حتى يطّلع الميواتيون على أحكام الأسلام وتعاليم القرآن، ويزول الجهل المخيم ويتبلج الصب الصادق، وينسحب الليل الفاسق، الذي أعمى عقولهم وابصارهم.

وسلك الشيخ محمد اسماعيل من قبل نفس الطريق، فقد أدخل كثيراً من ابناء الميواتيين في مدرسة بنظام الدين، وفقّههم في الدين، وأرسلهم إلى «ميوات» دعاة هُداة يعلّمون الآخرين ما تعلموا، واليهم يرج الفضل فيما أشرق من نور الأصلاح في هذه المنطقة، وظهرت من بوادر الخير والميل إلى الدين هن وهناك.

ولكن الشيخ محمد الياس أراد أن يخطو خطوة أخرى، ويقيم في ‹ميوات› نفسها كتاتيب ومدارس حتى يعم الشعور بالدين ويتوسع نطاق الخير والصلاح الذي بدأت بوادره، بدءا في حركة أشمل وأوسع وأعمق للاصلاح والتبليغ والتجديد الديني في البلاد.

الاشتراط لزيارة «ميوات» :

وما كان يريد الشيخ أن ينزل على أهل ‹ميوات› كضيف مبجّل وشيخ مكرم يمتثل الناس بين يديه ويتبركون به، ويسعدون برؤيته ويتشرفون باقامة مآدب فخمة له، ويدعو لهؤلاء وهؤلاء، ويثني عليهم ويذكرهم بالخير ولا شيء وراء ذلك، كما جرت العادة وأصبح عرفا في أوساط ترتبط بعالم ديني أو شيخ صالح عن طريق البيعة أو المواعظ والزيارات، وإنما أراد أن تكون زيارته مبدأ خير، ومبعث صلاح وبداية طريق لاحداث تغيير جذري في الوضع الفاسد المفسد الذي يعيشه المسلمون في تلك البلاد، فيعودوا إلى الأسلام من جديد، وكان يرى آنذاك أن الطريق الأمضى لذلك فتح مدارس وكتاتيب في كل أنحاء ميوات كي يتعرف الجيل الميواتي على الأسلام.

وقد ذكر الشيخ مرات عديدة، أنه لما أصرّ عليه كثير من أهل ميوات المخلصين أن يزور منطقتهم اشترط عليهم اقامة كتاتيب ومدارس، وأكد لهم أنه سوف لا يزور ما لم يعدوا بذلك.

وما كان عمل أصعب وأشق على الميواتيين، وقتذاك من تلك الفعلة، فكان النزول عند هذا الشرط أثقل وأبهظ شيء عندهم، فقد كانوا يدركون انه لا شيء أشق على الميواتيين من أن يصرفوا أطفالهم عن الأعمال التي تدر لهم المكاسب المادية، إلى التعليم، ومن هنا تراجع الذين كانوا يدعون الشيخ الياس إلى زيارة ميوات، وهدأت حماستهم، وكلما عرضوا عليه الزيارة، ردد عليهم نفس الشرط، وكان ميواتي ذكيا فوعد بايفاء الشرط ظنا منه أنه عندما ينزل الشيخ في منطقتنا سنفكر في ايفاء شرطه ونبذل لذلك مجهودنا ونواجه المشكلة بما يشاء الله.

بدأ اقامة مدارس وكتاتيب :

زار الشيخ محمد الياس منطقة ميوات وطالبهم بايفاء الشرط، وبعد اصرار متواصل وسعي كبير، ومحاولات مستمرة بذلها أهل ميوات، تم فتح كتّاب واحد تلته كتاتيب ومدارس أخرى كثيرة.

كان الشيخ يطلب إلى الميواتيين أن يجودوا عليه بأطفالهم فحسب، أما نصب المدرسين وفقهاء الكتاتيب وتوفير رواتبهم فكل ذلك اليه، وليس شيء من ذلك عليهم، ولكن الميواتيين - الذين معظمهم فلاحون - ما كانوا يرضون بأن ينفض أطفالهم أيديهم من أعمال الفلاحة والقيام على تربية البهائم والمواشي ويجلسون في الكتاتيب يتعلمون، فما كانوا يقيمون لذلك وزنا ولا يحسبون له حسابا، وما كان عندهم حرص على الدين، أو معرفة بالتعليم والثقافة، حتى يرضوا في هذه السبل بتضحية متواضعة، أو ايثار قليل، بل كانوا يرون في كل ذلك خسارة لا خسارة بعدها، وضياعا لجهودهم، وخطرا على آمالهم وأغراضهم، ومن هنا مست الحاجة إلى بذل جهود كبيرة في سبيل إقناعهم وإرضائهم بأن يسمحوا لصغارهم يجلسون للقراءة في الكتاتيب وأستفندت العملية مجهودات كثيرة.

وتمكن الشيخ في هذه الزيارة من اقامة عشرة (١٠) كتاتيب، وتلتها كتاتيب كثيرة حتى بلغ عددها في ميوات إلى مئات.

توفير نفقات تلك الكتاتيب :

لم يبدأ الشيخ العمل الديني «كعمل شعبي» تعود جميع تكاليفه ومسئولياته على الشعب وحده، وإنما قام به كعمل شخصي لا يبالي بانفاق أحب ما عنده من مال، وأعز أوقاته في سبيله، أنه ما كان يؤمن فيما يتصل بالعمل الأسلامي، بأن هذا شخصي وذاك شعبي، قدم اليه أحد المخلصين مبالغ قائلا : إصرفوا هذا في الفرض الشخصي، فقال : أيها السادة (مأ نكون منصفين مع أنفسنا ما لم ننصف مع الله ورسوله، ولا نكون قد أدينا حقنا، ما لم نؤد حق الله، واستعبرت عيناه، وقال: آه لم نقدر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حق قدره.

وكان ذلك مبدأه الأصيل، فقد وضع في العمل الديني الذي بدأ من ميوات كل ما كان يملكه من ممتلكات، ورثها كابرا عن كابر، أو حصل عليها عن طريق الهدية، وما قبل معونة أحد في هذه السبل إلا عند ما اضطرته الأوضاع.

الباب الرابع

الحركة الشاملة في ميوات لاثارة الايمان واشعال جمرة الحب والحنان

الباب الرابع

الحركة الشاملة في «ميوات» لاثارة الايمان واشعال جمرة الحُبّ والحنان

انقطاع الأمل في الكتاتيب والاصلاح الجزئي:

الشيء الحقيقي الذي جعل الشيخ محمد الياس يعتلي المكان المرموق فيما يتعلق بالعمل الاسلامي، هو بعد الهمة، فلم تستقر طبيعته القلقة على مرحلة بدائية للاصلاح والدعوة، ولم يقر له قرار ما لم يبلغ به إلى المرحلة الأصيلة التي كان يريدها ويسمو إليها.

وبدأ الشيخ محمد الياس يدب إليه اليأس مما كان يتم من الأصلاح الجزئي والتعليم عن طريق الكتاتيب، وشعر بأن الجهل المطبق، والظلام المخيم على البلاد، واللادينية السارية في المجتمع، كل ذلك يعمل عمله في تلك الكتاتيب أيضا، وان الطلاب لا يتم اصلاحهم وتربيتهم الدينية على ما ينبغي، ثم ان الجهل الذي يموج من حولهم كالبحر إلى مئات من الأميال، يجرفهم بحيث لا يعود لهم عين ولا أثر.

ولا يوجد عند القوم الحرص على الدين، حتى يبعثوا اولادهم للتحصيل والتعليم مندفعين راغبين، ويدعوهم يجلسون في الكتاتيب، وبما أنهم لا يتمتعون بمعرفة ما هو الدين، فانهم لا يقدرون هؤلاء الطلاب الذين يتخرّجون في الكتاتيب وينبثّون يحملون إليهم الهداية والدعوة، ولا يستمعون إلى ما يقولون، ولا يخضعون لما يدعون، إذا فلا تؤثر تلك الكتاتيب تأثيرا ما في حياتهم.

ثم ان هذه الأهتمامات كلها مصروفة إلى هؤلاء الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، ولم تكلفهم الشريعة بشيء ما، أما الرجال الذين هم موضع الخطاب في الشريعة والاحكام، والذين هم موضع سخط الله من اجل الأهمال للدين والرغبة عن العمل، والتطبيق، فليس لهم نصيب في هذه التدابير كلها.

على أن هذه الكتاتيب والمدارس مهما كانت كثيرة، لا تغطي ضرورة القوم المترامية الأطراف، ولا يمكن عن طريقهما تعليم جميع القوم وتربيتهم الأسلامية، ولا يمكن ان يكونوا جميعا طلابا في الكتاتيب، يلتحقون بها، ويدرسون فيها، منصرفين عن اشغال الحياة ووسائل كسب المعاش.

وقد حرص الشيخ في زيارته لميوات على حسم النزاعات والصراعات الكثيرة التي كانت لا تعرف النهاية منذ القديم، وقد نجح في ذلك نجاحا كبيرا، بفضل حكمته، ولباقته، الدينية، وربّانيته وروحانيته، كان أهل «ميوات» يقولون ما لهذا الرجل الذي ليس الا مجموعة من عدة عظام، يصلح كل قضية يتدخل فيها، وينزل الخصمان عند رأيه مهما كان كل واحد أبيا عصيا، لا يعرف اللين والمرونة؟

وظل الشيخ على اتصال ‹بميوات› يقوم برحلات متكررة إليها، وظل أهل ‹ميوات› يستفيدون منه علميا
ودينيا، ويبايعونه ويتخرجون عليه في التربية والاحسان، لكنه كان يشعر بأن العمل الديني اليوم كقطعان
من الغنم إذا ساقها الراعي ونعق بها من جانب خرجت من جانب آخر، وإذا حصرها من جانب مرت من
جانب ثالث. إذا تم اصلاح جزء بقيت اجزاء كثيرة لا تعدّ دون ان يتناولها الأصلاح، وتفككت عرى الحياة
التي إنما هي عبارة عن الأيمان والحرص على الدين، الأمر الذي لا يعرف الناس قدره منذ عهد عريق في
القدم.

وتوصل بعد تجارب طويلة ودراسات عميقة إلى ان أصلاح الخواص وتقدّم بعض الأفراد في الدين
والورع، ليس علاج المرض الحقيقي.

الحجة الثانية، وتغيّر الأتجاه فيما يتعلق بالعمل الديني والدعوي :

انطلق في شوال سنة ١٣٤٤ هـ ليمضي إلى الحج، في رفقة الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، ولما
انتهى الحج وعزم الرفقة على مغادرة المدينة المنورة، وجدوا الشيخ محمد الياس في قلق عجيب لا عهد لهم
بذلك، ولم يرض بطريق ولا بآخر، ان يفارق المدينة، وبعد أيام شكا الرفقة ذلك إلىّ الشيخ خليل أحمد
فقال: لا تطلبوا إليه الرحلة، فإما ان تنتظروا حتى يعزم هو على الرحلة، وإما أن ترتحلوا أنتم ودعوه
وشأنه، فان له شأنا لا تدركونه، وأخيرا قرر الرفقة انتظاره حتى يرتحل.

وقد شرح الله صدر الشيخ في تلك الزيارة الكريمة لبدء عمل دعوي، وحركة دينية شاملة، بقى اياما لا
يقر له قرار ويفكر في وعورة الطريق وضعفه وضآلته وصعوبة العمل، لكنه صح عزمه على ذلك وتأكد إنه
سيكون نصر الله حليفه، وارتحل من المدينة المنورة بعد ما أقام بها خمسة أشهر، ووصل إلى «كاندهله»
في ١٣من ربيع الآخر سنة ١٣٤٥هـ.

بداية جولات دعوية :

وبعد عودته من الحج، بدأ يقوم بجولات دعوية، ودعا الآخرين أيضا إلى القيام بتلك الجولات، ودعوا
الجماهير إلى تعليمات الأسلام الأولية، وفرائضه كالتوحيد، والصلاة، وكانت مثل هذه الدعوة غير معهودة
لدى الناس، وكان لهج عامة الناس بدعوة الدين مما يستغرب، ولكن بعض الناس قاموا بهذا العمل على
خجل وحياء.

وعقد مرة حفلة دعوية في قرية «نوح» بميوات، وطلب إلى الناس بهذه المناسبة ان يخرجوا جماعات
إلى مختلف الأنحاء، ويقوموا بالدعوة، ولكن الحاضرين استمهلوه لمدة شهر حتى يعدّوا عدتهم ويأخذوا
اهبتهم، وبعد مضي شهر كامل كونوا جماعة، وحددوا القرى التي سيزورونها، وتقرر أن الجماعة تصل
بجولة بعد أسبوع يوم الجمعة إلى قرية «سوهني» في مديرية «جورجانوه» وتتخذ خُطّة العمل للأسبوع
الآتي.

وعلى ذلك صلوا الجمعة جماعة في «سوهني» واعدوا برنامج عمل للأسبوع القادم، ثم جرت تقوم

بالجملة، وصلت الجمعة الثانية في قرية «تاورد» وصلّت الجمعة الثالثة في «نكينه» في محافظة «فيروزبور»،
وقد شهد الشيخ في كل من هذه الجمع، وأسهم في اتخاذ البرنامج الآتي.

وعلى هذا الأسلوب ظل العمل الدعوي يتم في منطقة ميوات، وكانت الجماعات الدعوية تعقد من حين
لآخر حفلات دعوية، توجه بهذه المناسبة دعوة الحاضرين فيها إلى مراكز الدين والدعوة والارشاد والتعليم
في خارج ميوات أيضا.

حجته الثالثة :

في عام ١٣٥١ هـ قام برحلة الحج للمرة الثالثة، ورأى هلال رمضان في نظام الدين في دهلي، وصلى
التراويح على محطة دهلي، وبعد ما ادى من الصلاة ركب القطار إلى «كراتشي» ومنها سافر إلى الحجاز،
وكان برفقته في الرحلة السعيدة الشيخ احتشام الحسن الذي يقول في رسالة له إلى الشيخ محمد زكريا
الكاندهلوي، وهو يتحدث عن أشغال الشيخ محمد الياس :

«سيدي! ان الشيخ يقضي معظم أوقاته في رحاب الحرم، ودائما تنعقد الجلسات الدعوية ويدور
الحديث حول الدعوة والتبليغ، وذلك هو الموضوع الوحيد، الذي يتحدث عنه الشيخ في كل مكان».

وغادر مكة المكرمة في الثاني من محرم الحرام سنة ١٣٥٢هـ الموافق ٢١ ابريل سنة ١٩٣٣م إلى
المدينة المنورة وتشرف بالزيارة، وعاد إلى الهند في الثاني من جمادي الأولى سنة ١٣٥٢هـ وهو اكثر ثقة
بإفادة ما يقوم به من العمل الدعوي وأشد حماسا له، وايمانا به، فعمل على تصعيده أكثر من ذي قبل.

جولتان في ميوات :

وبعد عودته من الحج قام بجولتين في ‹ميوات› مع جُماعة كبيرة، وكان برفقته في هاتين الرحلتين مائة
شخص على الأقل، ويحتشد الناس في أمكنة مختلفة، ويكون التجمع كبيرا، كانت الجولة الأولى لمدة شهر
كامل، والجولة الثانية لأقل من شهر، وكان يوزع الناس خلال الرحلة في جماعات ويدفعها في مختلف
القرى لتقوم بالجولة الدعوية.

الجماعات الدعوية تؤم المراكز الدينية :

ادرك الشيخ ـ بما له من تجربة طويلة، وألمعيته وفراسته ـ أن الفلاح الميواتي المسكين لا يمكنه تفريغ
الوقت ليتعلم الدين، وهو في حصار بيته وأعماله واشغاله، وليس يرجى في الوقت القصير الذي قد يفرغه
ولا يتمتع فيه بالهدوء المطلوب والانقطاع المقصود، أن يغمر قلبه ونفسه تأثير الدين وتعاليمه وتتشرب روحه
بما تتغير به حياته، ويحدث فيها الأنقلاب الصالح المرجوّ، ولا يصح ان نطلب إليهم ان يلتحقوا جميعا
بالكتاتيب والمدارس، ومن غير المعقول تماما ان نأمل ان المواعظ والخطب ستحدث انقلابا في حياتهم،
وتجعلهم ينتقلون من الحياة الجاهلية إلى الحياة الأسلامية، يقع بها تحول كامل في اخلاقهم وعاداتهم،
ونفسيتهم وعقليتهم، وافكارهم وعواطفهم، وينقلب ميزان الكره والحب لديهم.

لكنه يريد أن يتحقق كل ذلك ـ وبالبد ـ فما السبيل إليه؟ إنه يرى ان الطريق الوحيد ان يخرجوا جماعات ـ لمدة ـ إلى مراكز الدين والعلم، وأن يقوموا بعمل تصحيح الكلمة والدعوة إلى الصلاة في الجماهير والجهلاء، وعلى ذلك فانهم يستظهرون الدرس الذي تلقوه، والقطعة التي قرأوها، وأن يجلسوا إلى أهل العلم والدين هناك، ويستمعوا إلى ما يدور في مجالسهم من حديث العلم والدين، ويدرسوا أعمالهم اليومية حتى جلوسهم ونهوضهم، ونومهم وصحوتهم وحركاتهم وسكناتهم، وبذلك فانهم يكونون قد تعلموا الدين وتلقوا تعاليمه على طريقة طبيعية كالطفل يتعلم اللغة والمنطق، وكالمرء يتلقّى الأدب والثقافة.

ثم انهم يعمرون ـ خلال تلك الرحلات التي قد لا يجدون مثل هذا الهدوء في غيرها ـ أوقاتهم بتلاوة القرآن الكريم، وتعلم المسائل والاحكام، والاطّلاع على المندوبات والمُستحبّات، والاستماع إلى سيرة الصحابة وأحوالهم، وعلى ذلك يعودون إلى أوطانهم وقد تلقوا شيئا كثيرا في تلك المدارس المتنقلة.

غير أن هذا العمل كان صعبا جدا، ذلك أن انتزاع الناس من أشغالهم وعزلهم عن الأهل والعيال، وابعادهم عن الوطن الحبيب، ليس عملا هيّنا، لا سيما اولئك الذين تقربوا إلى الدين قليلا بعد جهد جهيد، واستنفد كسبهم مجهودا كبيرا.

ثم إنه لم تكن هناك ثقة في أن هؤلاء يتلقون في كل مكان يقصدونه بحفاوة واكرام ومواساة واخوة، وان جهلهم وسذاجتهم، وقرويتهم تدع الناس يعاملونهم معاملة العطف والرأفة والكرم، أم معاملة السخط والغضب والعتاب، ويواجهونهم بالسخرية والاستهزاء.

كان يرى الشيخ ان المنطقة الغربية (مديريتي مظفرنكر وسهارنفور) من ولاية «أترابراديش» من مراكز العلم والدين، ومنتجع العلماء والصلحاء، وليس هناك منطقة اجدر، بتعلم الدين وكسب التعليم الديني، عن طريق معاشرة رجالات العلم والدين، والصلاح والورع، وبالعيون والاسماع والافئدة ، من هذه المنطقة.

كان يعتقد ان الجهل والاهمال، وفقدان الحمية الدينية، والعاطفة الأسلامية، كل ذلك رأس المفاسد، والعلاج الوحيد ان يخرج الميواتيون لاصلاح نفوسهم وتعلم الدين وايجاد العاطفة الصالحة ـ التي تبعث المرء على ايثار الدين على الدنيا، والآجل على العاجل، وعلى السعي وراء ذلك ـ إلى خارج منطقتهم، لا سيما إلى المناطق الغربية في الولاية الشمالية.

يقول في رسالة له إلى احد الميواتيين :

«..... عزيزي ! ان جهل المرء وغفلته وقعوده عن السعي وراء الحق، كل ذلك مفتاح كل فتنة، وما دام الرجل يتّصف بهذه الصفات في طبيعته وعقليته وعواطفه، سترى نهوض فتن لا يأتي عليها الحصر، ولا تستطيع أن تصنع شيئا وتغير وضعا، والقضاء على الفتن الحاضرة، وسدا المنافذ امام الفتن القابلة، لابد من التركيز على الخروج إلى «أترابراديش» تدريبا على تحقيق المهمة التي يجري العمل بتحقيقها اليوم في بلدكم، وليس هناك سبيل غير هذا السبيل».

وكان يرجو أن هذه الدعوة ستعود تتمتع عن هذا الطريق بتبني العلماء والاتقياء في تلك المنطقة واشرافهم، ويطّلعون هم بدورهم على ما يعانيه هؤلاء المساكين من ابناء الأسلام في منطقة ميوات المنقطعة المنطوية على نفسها من البؤس والشقاء، والحيرة والضياع، والبعد عن الأسلام والجهل التام بتعاليمه، فيثير كل ذلك في قلوبهم العطف على حالهم، ويستقطب لفتتهم الكريمة نحوهم، ثم إنه كان يؤمن بأنه لابد ان تكون الدعوة حظيّة باشراف العلماء وتوجيههم، وكان يراها عرضة بدون ذلك للخطر والمحنة.

وانطلاقا من هذه الحكمة أراد ان يكون وطنه «كاندهله» المنزل الأول لأولى جماعة تبليغية، وذلك أنه وطنه، يعيش فيه أهله وذووه، وأولو قرباه الذين يعرفونه ويعرفهم، وهو مركز أهل الورع والعلم.

الجماعة الأولى تتوجه إلى «كاندهله» :

دعا الناس ـ وقد أظلّهم رمضان المبارك باشراقته النورانية والقرآنية ـ أن يتأهبوا للرحلة إلى كاندهله، ويهيّئوا الآخرين لذلك، وكانوا يعرفون خطورة «كاندهله» من حيث كونها مركز العلم والدين، وأهل القلوب واليقين، فعزّ عليهم أن يقصدوها مبلّغين دعاة، ويجهزوا الجهلاء والدهماء يؤمّونها موجهين مرشدين، بتلقوا الأمر في شيء من التنكّر والاستغراب، وما نشطوا لتنفيذه.

الا ان الشيخ بذل في هذا السبيل كل جهده، لأنه حينما كان يطمئن إلى فكرة ويراها في صالح الأمة، وحان الوقت، كان يركز عليها كل عنايته ولا يقرّ له قرار، ولا يهدأ له بال، ولا يهنأ له شراب، ولا يطيب له طعام، حتى تتحقق، فما وسع المخلصين له ان يقابلوا أمره بالزراية والاعراض والرفض.

توجهت الجماعة ـ التي كانت مكونة من عشرة أفراد أخيار ـ وأكد عليهم الألتزام بالذكر والدعاء، والانابة والالتجاء، وقوبلت في كاندهله بحفاوة واكرام بالغين.

الجماعة الثانية إلى «رائيفور» :

ثم دعا الناس للرحلة إلى «رائيفور» وتوجهت الجماعة إلى رائيفور، ووجدت فيها انصارا وتجاوبا وانسجاما، فقد كانت من مراكز الصلاح والدين والعلم، متنورة بنور العبادة، والاخبات والاخلاص، بفضل عبد من عباد الله الصالحين، وهو الشيخ المُربي الكبير الشيخ عبدالقادر الرائفوري (١) خليفة الشيخ الكبير عبدالرحيم الرائفوري.

جولات منظمة في ميوات :

أعدّ الشيخ خريطة ميوات، وخطط في مناطقها للجولات، وأمر أن تسجل المسافة بين منطقة ومنطقة، وقرية وقرية، واسماء العريقين والاقيال في القرى، ومن هم في الأكثرية الفعالة من الأقوام والاجناس في القرى.

وعقدت حفلة دعوية كبيرة في «جتورا» (CHATORA) في محافظة «فيروزبور» وتكونت ست عشرة جماعة، ونصب على كل منها أميرا، وعلى كل أربع منها «أمير الأمراء»، وتظمت لهذه الجماعات كلها

رحلات وجولات في ربوع ميوات في وقت واحد، وحددت مناطق لكل أربع منها، وكان يحضر في كل منزل مراقبون من نظام الدين يستطلعون الأحوال ويلقون الخطب، واحتشدت الجماعات كلها في «فريد آباد» وحضرها الشيخ، وعقدت حفلة كبيرة وتوجهت ست عشرة جماعة دعوية إلى مختلف الأمكنة، وتجمعت في جامع دهلي الكبير معرجة على مناطق مختلفة، وعقدت فيه حفلا، ثم تكونت جماعات وتوجهت إلى سوني بت وباني بت، وإلى منازل اخرى.

واستمر العمل في ميوات على تحريض الناس للقيام بالرحلة ومغادرة الوطن، والجولات من اجل الدعوة إلى الدين وتعليمه وتعلمه، وكان ذلك هو همّ الشيخ والامر الوحيد الذي يشغل باله ليل نهار، وكان يعرض هذه الدعوة على الناس قائما وقاعدا، وواقفا وسائرا، ومسافرا ومقيما، وعقدت حفلات كثيرة في ميوات، وعرضت فيها الدعوة وحدها بأساليب كثيرة، وعناوين شتى، يؤكد الشيخ للناس أن ذلك هو ركيزة رقيهم في الدين والدنيا، حتى قل تنكرهم لهذا العمل وانبعثت البعثات والجماعات في انحاء ميوات.

وكان التركيز على إنه لابد أن تعم الدعوة إلى ذلك في البلد كعموم التقاليد والاعراف وعقدت لذلك حفلات واجتماعات، وتكونت جماعات وقامت بجولات في انحاء ميوات والولاية الشمالية تبرع الناس لذلك بأوقاتهم، وقد عرف الناس لأول مرة هذا النوع من التبرع، التبرع بالاوقات والاسابيع والشهور، فقد كانوا لا يعرفون الا التبرع بالاموال والنقود.

وكان الشيخ يهدف إلى اثارة روح الاخلاص والايثار في العاملين للدعوة ومجال التبليغ وتعويدهم على الخسارة في التجارة والزراعة بجانب الدعوة إلى الله، وفي ميوات عرف الناس لأول مرة ان يرضوا بنقصان ما يتعلق بدنياهم من اجل الدين، وأن كان الله تبارك وتعالى لم يبتلهم بذلك، ولم يرزأهم في دنياهم حينما شغلوا بنشر دينه وتبليغ دعوته، وقد رأى العائدون من الرحلات والجولات الدعوية زيادةً في كل ما كانوا يمارسونه من التجارة والزراعة والفلاحة، أو أي نوع من التعاطي في الحياة، وشاهدوا البركة بأم أعينهم.

تبشير شامل بالدين في ميوات :

وقد عم في مدة قليلة بفضل هؤلاء الدعاة المتطوعين الذين كانوا يتجولون من ناحية إلى ناحية ومن قرية إلى قرية، حاملين عروضهم وزادهم ومتاعهم على اكتافهم، الأقبال على الدين، وانبعثت روح الاخلاص والتقوى، والحرص على تعاليم الأسلام في هذه المنطقة الواسعة المترامية الأطراف التي ظلت مظلمة عبر قرون لم يشرق في ربوعها نور الأيمان واليقين، وقد حظيت بانقلاب عجيب في العقيدة وتقلب في القلب والعقلية والنفسية، لم يعرف له نظير في الماضي القريب والبعيد، ولو أن حكومة اسلامية بذلت كل ما لديها من وسائل وامكانات ونصبت كثرة كاثرة من العلماء والمربين من اجل تقريب الدين إلى الناس، أو فتحت مئات وآلافا من الكتاتيب والمدارس من اجل تعليم الدين، لما استطاعت ان تكسب النجاح في نشر الدين في جزء من أجزائها في هذه السهولة، واللباقة والدقة والحكمة، حقا ان احداث التحول في الحياة يفوق الوسائل المادية وتعجز عنه الأمكانات المادية مهما كثرت وعمت.

ان الطريق الصحيح الناجح لنشر الدين إنما هو الطريق الذي سلكه الرعيل الأول في فجر الأسلام، حينما كان الجيش الأسلامي يحمل زاده ومتاعه وسلاحه على ظهره، ويعد كل ذلك بنفسه ومن عنده، وعلى حسابه، ويحدوه إلى ميدان المعركة وساحة الجهاد الحنين إلى الشهادة والفوز برضا الله تعالى، والرغبة في ثوابه واجره، وعندما كان الدعاة إلى الله والمبلغون برسالته، يقومون بمسئوليتهم منطلقين من خشية الله، وصادرين عن حب الله ورسوله، الذي ملك عليهم قلوبهم وخالطت بشاشة نفوسهم، فيؤدون عملهم كفريضة شخصية، ومسئولية ذاتية، وفي أمانة ونزاهة واخلاص وايثار.. وكانت هذه الحركة الدينية في ميوات تواكبها مسّة من هذه الروح المباركة ونفحة من نفحاتها، ولو رأى احد هؤلاء المبلغين يحملون مسوحهم، ويستأبطون اجزاء القرآن ويلفون الحمص أو أرغفة في ناحية من ردائهم، وألسنتهم رطبة بذكر الله، وعيونهم تنم عن السهر واحياء الليالي في العبادة، وسيماهم في وجوههم من اثر السجود، وتشف أيديهم وأرجلهم عن الكدّ والكدح، لتمثلت أمامه قصة اصحاب الوفاء من الصحابة الأبرار الذين بعثهم الرسول صلوات الله وسلامه لتعليم القرآن وتبليغ الأسلام، فقتلتهم ايدي الكفار الآثمة عند بئر معونة.

تقلّب الجوّ :

وبدأ الجو الميواتي يتغير شيئا فشيئا، وبدت آثار هذا التغيير في مختلف مظاهر الحياة، ونواحي السلوك والعادات، وصلحت الأرض وأصبحت تبشر، بأنها تنمو وتترعرع وتخضر وتثمر فيها الدعوة الأسلامية وتعاليم الدين واحكام الأسلام، ولم تعد هناك حاجة إلى الجهاد والكفاح من اجل كل ما يتعلق بالدين، نعم كانت هناك من بقايا الجاهلية ومُخلّفات التقاليد والاعراف، ما يدعو للعمل على الأصلاح، ولكن المناطق التي بذلت فيها المحاولات الأصلاحية لم تكن تحتاج إلى جهد كبير القضاء على شيء لا يمت إلى الدين بصلة، بل كان يكفي ان يقال للناس ان ذاك ليس من الدين في شيء فينتهون عنه عن أخرهم.

وكان الشيخ محمد الياس يرى ان ذلك هو الترتيب الصحيح فيما يتعلق بالقيام بنشر الدعوة وتبليغ الرسالة ان يكون العمل في الناس على اثارة الأيمان واليقين، وايجاد الحرص على الدين، وتخريجهم على استعذاب خسارة ما إذا كانت تلحق بما يتعلق او لا هم من أجل عقباهم، وإذا تمت كل تلك المراحل فانهم - بدورهم - يقبلون على جميع الدين ويحرصون على تطبيقه بجميع اجزائه في واقع حياتهم وسلوكهم.

وفعلا قد أتت الجهود الدينية - التي بذلت في ميوات على هذا الأسلوب والمنهج -، اكلها في مدة غير طويلة وبدأت مظاهر الصلاح والاقبال على الدين تتجلى في حياة الميواتيين بحيث لو ان احدا عمل على تربية واحد منهم طوال خمسين سنة أو اكثر، على غير هذا الترتيب، لما نجح هذا النجاح الكبير في تخريجه على الدين، بل ربما كانت النتيجة معكوسة سلبية.

وعلى كل فقد حدث الأقبال الشامل على الدين، وبدت آثاره في السلوك، حتى ان المنطقة التي لم تعرف المسجد، غنيت بالمساجد في كل ناحية، وانبثّت شبكة الكتاتيب والمدارس، وكثر حفاظ القرآن الكريم، ووجد عدد وجيه للعلماء والخريجين في العلوم الأسلامية، وعمت الكراهية لكل ما يتصل بالهنادك والهندوكية من الملابس والتقاليد، والشعائر، ورسخ في القلوب تقدير الوضع الأسلامي، وحرص الناس على اعفاء اللحى،

وانتهت التقاليد الجاهلية فيما يتعلق بالزواج، وقل الربا والتعاطي الربوي، وشذ من يحتسي الخمر، وقل النهب والغارة، وقطع الطرق وانخفضت إلى حد مدهش نسبة الجرائم الخلقية، والاضطرابات والصراعات والخصومات، وكذلك ذبلت البدع والخرافات والتقاليد غير الاسلامية، وعادات الفسق والفجور، لأن كل ذلك لم يجد الجو الملائم له ولا التربة الصالحة في حقه.

وقد تحدث عجوز ميواتي عن تلك الحقيقة في بلاغة وبكلمات عميقة ذات دلالات دقيقة لا مزيد عليها وذلك عندما سأله الشيخ المقريء داوود: ماذا، يجري الآن في منطقتك، قال الميواتي العجوز:

«لا أدري الا شيئا واحدا: أن الأمور التي كانت تستنفد جهودا جبارة ولا يتحقق شيء منها، عادت الآن تتم دون محاولة، وأن الأمور التي من اجل القضاء عليها كان يبذل أقصى الجهود وتشعل الحروب وتخاض المعارك، وتكون النتيجة صفرا، اصبحت الآن تغيب دون سعي».

كان الشيخ يرى ان العامل الأكبر فيما حدث من تغير في حياة الميواتي هو خروجه من منطقته ورحلته إلى المراكز الدينية في «اترابراديش».

يقول في رسالة (٢) :

«قد كان لرحلات الجماعات الدعوية إلى مناطق الولاية الشمالية تأثير أي تأثير، فانه على قلة الأفراد ـ الذين قد لا يبلغ عددهم إلى مائتين ـ الذين قاموا برحلات تبليغية وعلى قلة الوقت الذي ليس بشيء مقابل الوقت الذي يصرفه الناس في بيوتهم وأوطانهم، كان من التأثير ما جعل الناس تدور على السنتهم كلمة: «الانقلاب العظيم»، وبدأت مشاعر الناس في منطقتكم ـ من أولى الجهالة العمياء الصماء، البكماء الخبيثة تتحول مشاعر طيبة دفعتهم إلى نشر الدين».

غير ان الشيخ كان يرى ان الميواتي لئن لم يجعل الخروج من منطقته جزءا لا ينفك من حياته، وعدل عن السعي والتحرك من اجل الدين، فسيعود إلى اسوأ مما كان عليه من ذي قبل، لأن ميوات قد غدت ـ من اجل نهضة دينية وصحوة اسلامية ـ محط الانظار في العالم، وقد يكون ملأ هذه النظرات الشر والخبث، ثم ارتفاع الخمول والجهل يفرض اعمال الحذر والحيطة اكثر من قبل، يقول في رسالة (٣) :

«ان المجتمع الميواتي لا يمكن ان يذوق طعم الدين ولذّة الأيمان ما لم تنهضوا بكل اهتمام من اجل العمل على تحريض الناس على ان يجعلوا مغادرة اوطانهم لمدة أربعة اشهر، مبلّغين متجوّلين من بلد إلى بلد، جزءا لا ينفك من حياتهم.

ان الكمية التي تحققت إلى الآن، كانت خفيفة وطارئة، ولو قعدتم عن العمل لهبط القوم حتى عن المستوى الذي كانوا عليه من قبل، وذلك ان الجهل كان كحصار، وكانت الأقوام من حولهم من شدة الجهل والخمول لا يحسب لهم حسابا، ولا تلقى إليهم بالا، اما اليوم فقد يمكن ان يكونوا فريسة الأقوام والملل إذا لم تقم من حوله حصارا منيعا، وسياجا حديديا من الدين».

الحجة الأخيرة والقيام بالدعوة في الحرمين الشريفين :

كانت امنية الشيخ الأثيرة ـ التي ظلت قائمة إلى آخر ايام حياته ـ ان يمضي إلى مركز الأسلام ومهد الأيمان، إذا رسخ العمل الدعوي في الهند ـ في جماعة من زملائه ويقوم ليعرض الدعوة هناك لأن ذلك هدية ثمينة لهم، وهم أحق بذلك، وسيتلقونها بترحاب وفي سرور قائلين: «بضاعتنا ردّت الينا» ثم هم بدورهم يحملونها إلى كل بيت وقرية في العالم».

وقويت عزيمته وتأكدت ارادته في هذا الشأن في سنة ١٣٥٦هـ، وارتحل ينوي الحج في الثامن عشر من ذي القعدة (٤).

وقد كان الحديث في الباخرة حول الدعوة والتبليغ، ومناسك الحج، وفي طريقه من جدة إلى مكة نزل بـ «بالبحرة» وجمع نخبة من الناس فيها وتحدث إليهم، وكان الحديث موضع احترام واعتبار عندهم، وبما أن أيام الحج قد حانت، وشغل بتوفير الأسباب والبحث عن المنزل الذي ينزل فيه، فلم يتمكن في مكة المكرمة من حديث في الدعوة والتبليغ، ولكنه اجتمع بحجيج من مختلف الأقطار في منى وحادثهم في الموضوع، وألقى حديثا في لقاء كان له احسن الأثر في القلوب».

وبعد الأنتهاء من الحج تشاور في الموضوع مع بعض العلماء الهنود من أولي الحكمة والتجارب، فعارضوا فكرة عرض الدعوة نظرا إلى وضع الحجاز، ولكن الشيخ شفيع الدين (٥) أيد الرأي واشار بالبدء في العمل، وقال اني ارجو رجاءا كبيرا أن نصر الله سيكون حليف هذا العمل.

وكان اللقاء مع جماعة من حجيج البحرين وجرى تبادل الرأي فيما يتعلق بالموضوع، فوعدوا باسهامهم في العمل في وطنهم، وكذلك كان الحديث مع نخبة تجار الحجاز الهنود، فقابلوا الفكرة أولا بالتنكر والاستغراب، ولكنهم بعد أخذ ورد رضوا بالعمل إلى حد كبير، واتفق رأيهم ورأي جميع الأخوة على الحصول على السماح أولا من جلالة الملك (عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود) وتقرر ان تعرض عليه الأغراض والاهداف مكتوبة باللغة العربية، وقد اجتمع الشيخ احتشام الحسن في هذا الصدد بدوره بشيخ الأسلام عبدالله بن حسن والشيخ ابن بليهد.

وبعد أسبوعين في الرابع عشر مارس سنة ١٩٣٨م ذهب الشيخ الياس والحاج عبدالله الدهلوي، والشيخ عبدالرحمن مظهر شيخ المطوفين، والشيخ احتشام الحسن ليجتمعوا بجلالة الملك، وقابلهم الملك باكرام، واستقبلهم نازلا عن بساطه، وأدنى مجلسهم، وعرضوا عليه اغراضهم، فتحدث إليهم الملك مدة أربعين دقيقة على التوحيد، والتمسك بالكتاب والسنة، واتباع الشريعة، ثم ودعهم في حفاوة واكرام.

وأوجز الشيخ احتشام الحسن أهداف الدعوة في مقال، وعرضها على رئيس القضاة شيخ الأسلام عبدالله بن حسن آل الشيخ، فقد اجتمع بالشيخ الياس والشيخ احتشام الحسن بدورهما، فأيد الفكرة تأييدا حارا، وأكد لهما تقديم العون والدعم، لكنه اوقف السماح ببدأ العمل على سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود.

وفي أيام النزول بمكة المكرمة كانت الجماعة تقوم بالجولة الدعوية وتجتمع بالناس على الانفراد صباحا ومساء، وتقنعهم بالفكرة، وتهيئوهم للعمل، وعقدت حفلات، تحدث فيها باللغة الأردية الشيخ ادريس والشيخ نور محمد.

وقد أكد الشيخ للرفقة ان يصرفوا اوقاتهم في الدعوة والتبليغ، ويركزوا عنايتهم على ذلك اكثر من العمرة والعبادات الأخرى، لأن ذلك خير أوان ومكان للعمل الدعوي في أقدس ربوع على ظهر الأرض.

وكان لقاء مع نخبة الناس والعلماء، طرح فيه الشيخ سؤالا عن سبب تدهور المسلمين اليوم، وكل اجاب بما رأى، واخيرا وضع الشيخ النقاط على الحروف، ووضع الأصبع على مواضع الضعف، وضرب على الوتر الحساس، ودعا الناس إلى العمل الذي نهض به، فكلهم وافقوه.

تأييد من رجل رباني :

يقول الشيخ محمد يوسف ابن الشيخ محمد الياس، بينما نحن جلوس في منزلنا ازاء باب العمرة، وكان الشيخ محمد الياس يتحدث الينا، ونحن مصغون إليه، اذ طلع علينا رجل ووقف بالباب وقال : «ان العمل الذي تقومون به اوصيكم بالاستمرار فيه، لأن في ذلك أجرا وجائزة، ولو اطلعتم عليها لطرتم فرحا، ومتم جزلا»، ولم يلبث الرجل ان مضى، ولم ندر من هو، اما الشيخ فبقي يتحدث ولم يلتفت إليه بتاتا.

وفي الخامس والعشرين من صفر سنة ١٣٥٧ هـ غادر مكة المكرمة إلى المدينة المنورة على سيارة، ووصل إليها في صباح السابع والعشرين من صفر، وبدأ يقوم فيها بمحاولات دعوية، لكنه علم ان سمو امير المدينة المنورة لا يملك السماح بمثل هذا العمل، وانه سيرسل الأوراق إلى مكة المكرمة، ويتخذ بالامر الذي يصدر منها، وقد اجتمع الشيخ الياس مع الشيخ السيد محمود والشيخ احتشام الحسن بسمو أمير المدينة المنورة، ووضع أمامه اهدافه فأشاد بها وحبّذها.

وجرى الحديث والنقاش في الموضوع مع أناس كثيرين من مختلف الطبقات، وقد أم الشيخ من اجل هذا الغرض «قباء» مرتين، وتحدث فيها في حفلة واستعد عدة افراد للعمل.

وذهب مرتين إلى «أحُد» وألقى الشيخ نور محمد والشيخ محمد يوسف (٦) خطابا باللغة العربية استمع إليه الناس في ترحيب واشادة، وكان الاحتكاك بأهل البداوة أيضا وكان العمل في الأطفال ان ينطقوا بكلمة الأسلام صحيحة، والارادة تتشجع حينا وتنهار حينا أخر، وتتأرجح بين اليأس والرجاء، لكن تلك الرحلة اكدت الشعور بالحاجة إلى هذا العمل حتى في ديار العرب.

العودة إلى الهند :

وظل الشيخ في ايام اقامته بالحجاز على اطلاع على تفاصيل العمل ومسيرته في ميوات ودهلي عن طريق الخطابات والرسائل التي يرد عليها في انتظام، ويوجه ويرشد، ويحرض ويرغب.

ثم عقدت نيته على العودة إلى الهند ـ على اشارة من أهل الرأي والخبرة ـ بعد ما دامت الاقامة بالمدينة المنورة خمسة عشر يوما، ووجه من الهند رسالة إلى رجل في مكة المكرمة ردا على التساؤل الذي ثار في قلبه حول عودته إلى الهند، نثبتها ههنا، لأنها تدل على شيء من التفصيل :

«صاحب الفضيلة، حفظكم الله ورعاكم، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»

ان الباعث على العودة أني كنت قد اشرت على الأخوة ببعض اساليب العمل من اجل البدء في العمل على اسس متينة، وذلك ذات صباح بعد ما مضت على الاقمة بالمدينة المنورة خمسة عشر يوما، لكن جميع أولي الرأي اجمعوا على إنه لابد من قضاء عامين كاملين من اجل احكام العمل هناك، وترسيخ جذوره، وقد وافقت على الفكرة تماما، لكن في هذه الاقامة الطويلة هناك كان خطر ضياع الجهود التي بذلت في الحجاز في هذا السبيل في الهند، ومن ثم تأكدت إرادتي أن أجعل العمل في الهند، بحيث أتمكن من العمل في الحجاز في إطمئنان وانقطاع، وعلى ذلك ، فان العودة إنما هي من اجل اقامة مؤقتة، ولئن كنتم تحملون حبا لدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وألما على ضياعه، وتريدون في اخلاص ان تحافظوا عليه، وترون أن دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم افضل وأنفع مما أنتم فيه مشغولون، وان هذا الطريق الذي بدأنا نسلكه للعمل الدعوي صحيح عندكم، فلابد ان تقووا ايمانكم عن طريق التضحية والفداء في هذا السبيل، منطلقين من الفهم المباشر للمبادىء، وداعين الناس إلى تفهمها».

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد الياس

نظام الدين ـ دهلي..

(١) كان من كبار المربين، والعلماء الصالحين المصلحين، الذي انتفع به خلق كثير من أهل الهند وباكستان، فيهم كبار العلماء والزعماء والقادة السياسيين، كان يجمع بين الأتصال بالله والاخلاص والانابة والدعوة إليه، وبين التفقه والوعي المدني والسياسي، ومرونة العقل ورحابة الصدر، ومعرفة الحقائق وواقع الأمة والبلاد، ليرجع للتفصيل ولمعرفة خصائصه وفضله كتاب المؤلف «ربانية لا رهبانية» توفي في تحيان في لاهور سنة ١٣٨٢ هـ (اغسطس ١٩٦٢م). (ص ٣٧ ـ ٦٠).

(٢) باسم الشيخ محمد عيسى من سكان «فيروز بورنمك» بميوات.

(٣) باسم الشيخ محمد عيسى المذكور.

(٤) ونصب للاشراف على العمل الدعوي في الهند ابن اخيه الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي.

(٥) كان من خلفاء الشيخ الكبير الحاج امداد الله المهاجر إلى مكة، من سكان بلدة نكينه في مديرية «بجنور» في أترابراديش (الولاية الشمالية) بالهند، هاجر الهند إلى مكة المكرمة واستوطنها وكان من عباد الله الذين اخلصوا عملهم لله.

(٦) هو ابن الشيخ محمد الياس الذي خلفه بعد وفاته، وتقدم العمل الدعوي ونشاطه في حياته تقدما كبيرا، ليرجع إلى سيرته بقلم السيد محمد الثاني الحسني المرحوم، توفي سلخ ذي القعدة سنة ١٣٨٤هـ (٢ ابريل ١٩٦٥م)

الباب الخامس

رسوخ جذور العمل الدعوي في ميوات، والقيام بالدعوة خارج ميوات

الباب الخامس

رسوخ جذور العمل الدعوي في ميوات، والقيام بالدعوة خارج ميوات

صعّد الشيخ في ‹ميوات› نشاطاتة الدعوية بعد ما عاد الي الهند ، واكثر من الرحلا ت والجولات وعقد الحفلات والندوات ، وتسيير الجماعات التبليغية ، وايفادها الي اترابراديش، ومدنها وقراها ، واقبل أهالي المدن من المسلمين الى هذا العمل ، وبدأ العمل على اثارة روح العمل الدعوى في أهل دهلي أيضا ، طمعا في أجر الله وحرصا علي رضاه وثوابه ، وتكونت الجماعات الدعوة في كل حي من أحيائها وبدأت الجولات الدعوية في كل أسبوع .

انطباعات الشيخ القلبية وسبب اقباله على هذا العمل:

حينما درس الشيخ ما يعيشه أهل المدن ، توصل الي النتائج الآتية ، والحقائق المرة التالية التي جعلته كأنه يتقلب علي أحر من الجمر .

١ـ لا شك ان المدن لا تزال تتمتع بروح الدين ، ولكنها في نقص مستمر، وانكماش دائم.

ان التدين كان قد انتقل من الجمهور الي كمية من المسلمين ، ثم ضاق نطاقة علي مر الأ يام لينحصر في الخواص ، ثم تقلص ليستأثر به أخص الخواص ، ثم انحسر حتي انحصر في بعض الأفرد والسعداء هنا وهناك ، ولا يزالون ينقصون ولا يزيدون .

لا شك أنه قد يتجمع في موطن واحد، عدد لا بأس به من المتد ينين ، والصلحاء ، مما يجعل المسلمين يستبشرون، وتقر أعينهم، ويطيبون نفسا ويقولون في أنفسهم : نحن في خير ما دام هذا النموزج العالي من الدين والورع ، والزهد والصلاح في هذه الكثرة.. علي الرغم من ذلك كله ، فإن التدين وروح الاقبال علي الدين ، قد فقد اسمة الشمول ، ولا تزال هذة الروح في ضعف وانهيار سريع ، مما يشكل خطر غيابها كليا مع غياب هذة الفئة القليلة ، والقلة الضئيلة من المتدينين حتي تكون نقطة في اليم، أو كذرة ضائعة في الصحراء المترامية الأطراف.

إن الأسر والبيوتات التي كانت مركز العلم والمعرفة ، والهداية ، والارشاد ، وروح الأيمان والاحتساب ، والدين واليقين ، تتوارث العلم والدين ، والزهد منذ قرون ، وتتنقل هذه الروح من القلب الى القلب ، ومن النفس الي النفس ، ويتنور المشعل من المشعل ، قد أصبح هذا المشعل بفقد زيتة ، ينطفيء

نوره وكل من يموت يترك وراءه فراغا لن يملأ، وكان الشيخ على اطلاع شخصي على ما تعانيه قري «مظفرنكر»، و«سهارنفور»، ودلهي المنتجة للرجال والمخرجة للأ بطال ، من الأنحطاط الزائد، وكان يبدي علي ذلك قلقه البالغ وأسفه الشديد ، يقول في رسالة غراء :

«وا أسفاه ! إن الزمان صار ضنينا بأولئك الذين كانوا يتلذذون بذكر الله، ويتذوقونه وتغيب الباقية من الذين تخرجوا على ذلك بملازمة الأبرار ومعاشرة الأخيار، ولا يخلفون من يسد مسدهم».

وكان الشيخ يريد تلافي ذلك بالعمل علي تعميم روح التدين في عامة المسلمين؛ وان يوجد في المسلمين خواص المتدينين الذين يكونون علي قمة من الاخلاص، وروح الأمان والاحتساب، قد كان ذلك من قبل في كل العهود الاسلامية، ولا بد أن يكون ذلك اليوم، فلن يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها.. وكذلك حال التعليم، انها أسوأ من حال الأقبال علي الدين، فكان يري أنه لا بد من تعميم التعليم الديني، حتي لا يعود مسلم جاهلا بأوليات الدين وضرورياته، ومبادئه واحكامه التي هي قوام الأسلام، وعلي ذلك يحصل كل من أبناء الاسلام من العلم علي ما لابد منه لكي يعيش مسلما ثم لابد أن يتخرج فيهم متعمقون في علوم الكتاب والسنة، وأصحاب دراسات عالية واختصاص في العلوم والفنون..

٢ ـ صار المشغولون من المسلمين في المدن، يرون الدين صعبا عسيرا ، لأنهم قد ظنوا أن الدين معناه الأنقطاع التام عن الدنيا وكان ذلك شيئا غير موجو ، كان الدين مما لا يمكن الأخذ به، فاقبلوا علي الدنيا بقلبهم وقالبهم وتركوا الدين وشأنه، لاتحدث به نفوسهم، ومما يدعو للأسف، انهم اطمأنوا الي حياتهم غيرالاسلامية واسترسلوا إليها علي علم منهم أنها غير اسلامية مادية محضة، وعلي ذلك فلم يبق في حياتهم نصيب لله ربهم وخالقهم، وإنما كل ما فيها للنفس والمادة والمعدة، وغدت حياتهم تلك التي جاء في الحديث في شأنها:« الدنيا ملعونة وملعون ما والاّه إلا عالم أو متعلم»

وقد بلغ بهم الانحطاط الديني الي أنهم حينما ينبههم أحد علي سوء حالتهم، يقول بعضهم صراحة:اننا ماديون، لا تهمنا الدنيا، وبعضهم يتجرأ في القول والصراحة: فيقول نحن عباد البطن، وكلاب الدنيا، لانتهالك الا عليها

وكان الشيخ يعرف ـ ككل رجل عنده علم من الشريعة، والمام بروح الاسلام ـ أن الدين، إنما هو عيش الحياة، والتعاطي فيها، والقيام بالأشغال، واقامة العلائق في ظل أحكام الاسلام وحسب ما يقتضيه الدين والقرآن، لكن ذلك يحتاج الي قليل من العلم والعناية، وكان الشيخ يري أنه لابد من تبليغ هذه الحقيقة في المسلمين، لأن ذلك هو السبب الوحيد في انحراف الكثرة الكاثرة من المسلمين عن الدين، واسترسالهم الي المادة، وعبادة النفس والشهوة.

يقول في رسالة:

«... إن مفهوم الدنيا، صار مفهوما خاطئا جدا في الأذهان، إن الاشتغال بأسباب الحياة ليس دينا، فان الدنيا قد لعنت، والله سبحانة جل عن أن يأمر بشيء ملعون، وعلى ذلك فان السعى عدا المامور بة ظنا

أن ذلك مأمور به من الله، ومعرفة بالحلال عن الحرام، وتقديرا وتعظيما للمأموربه كل ذلك هو الدين، والاقبال على الحوائج والشعور بها مع غض البصر عن أمر الله، وظنها ضرورية من أجل سبب آخر دون الامر الألهى، كل ذلك هو الدنيا.

وكان يشبه الدين بلعاب الفم الذى بدون كمية قليلة منه لا يجد الانسان لذة في الطعام والشراب، ولا يستطيع أن يسيغهما، وتلك الكمية من اللعاب موجودة عند كل انسان، وكذلك هذا القدر الضرورى من الدنيا موجود لدى كل مسلم، وإنما الحاجة إلى أن يخرجة فى أشغاله، وعلائقه الدنيوية حتى تطيب دنياه، ويستقيم دينه .

٣ـ وكذلك أصبح الناس يظنون منذ مدة أن التعليم الديني لا يمكن الحصول عليه الا بكتب ومقررات دراسية على أساتذة ومدرسين، وفى مدارس ومعاهد، أقيمت لهذا الغرض خاصة، وبقضاء أعوام عديدة فى جد واجتهاد مضن، وإذا كان الجلوس ـ فى المدارس لمدة ثمانية أو عشرة أعوام أو تزيد ـ متعلما، لا يمكن، فقرر المسلمون جلهم أن التعليم الدينى لم يكتب فى حظهم، وأنهم يعيشون جاهلين بأحكام الأسلام، ومنعزلين عن تعاليم الحديث والقرآن .

صحيح أن التعليم الدينى يحصل عليه فى المدارس، الا أن ذلك هو ما يتصل بدراسة عالية، واختصاص، وتعمق، لكن جميع أفراد المسلمين لايمكنهم قط أن يبلغوا هذه المنزلة، وليسوا جميعا فى حاجة إلى هذا القدر من العلم والمعرفة.

إن القدر الضرورى من التعليم الدينى يمكن كل مسلم أن يحصل عليه مع كل ما هو فيه من الأشغال والعلائق الدنيوية.. قد كان الصحابة رضوان الله عليهم ـ إلا أصحاب الصفة الذين كانوا فى عدد ضئيل جدا ـ فى أشغالهم وعلائقهم ووسائجهم من الأهل والعيال، كان فيهم تجار، وفلاحون، واصحاب مهن وحرف وصناعات، وكانت عليهم تكاليف الحياة والعائلة والبيت، ولم تكن هناك فى المدينة المنورة مدرسة تقوم بتعليم العلوم الدينية، ولو كانت لما أمكنهم جميعا أن ينتسبوا إليها تلاميذ ومتعلمين، ويمضوا فى رحابها أعواما طويلة، ولكن كانواـ كما يعلم ذلك كل الناس ويتمتعون باطلاع على الأحكام وعلى ما لابد منه من الدين، من المسائل والفضائل، والفرائض والواجبات والمندوبات، والحلال والحرام، فمن أين يأتى لهم هذا القدر الضرورى من التعليم الدينى؟ إنما تأتى لهم من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، والاختلاف إلى مجالسه، والجلوس إلى من كان يفوقهم علما، والاحتكاك بأهل الدين والورع، والعلم والتقوى، ودراسة حركاتهم وسكناتهم ومصاحبة بينهم فى السفر والحضر، والحروب والجهاد، وتعلمهم الأحكام وقت الابتلاء بها والحاجة إليها، وعيشهم فى الجو الدينى والايمانى، ولاشك أن هذه المنزلة العاليه، والقمة الشامخة التى كانوا عليها، لايمكن لانسان اليوم أن يسمو إليها، ولكن مما لا يختلف فيه اثنان، أنه ليس هناك طريق أمثل وأشبه فى العلم والعمل والقول الا الطريق الذي سلكوه، فلنسر على طريقهم باذن الله.

وكان يرى أن الطريق إلى ذلك أن يدعى المسلمون عامة ـ تجارا فلاحين وموظفين، ومشتغلين بعمل

من الأعمال ـ إلى تفريغ جزء من أوقاتهم من أجل تعلم الدين، وأن يؤدوا زكاة أوقاتهم كما يؤدون زكاة أموالهم، وأن يفارقواالبيئة التى قد جربوا طوال عمرهم أنهم ما قدروا فيها على أحداث تغير ملموس فى حياتهم، وما استطاعوا أن يتعلموا حتى مبادئ الدين واحكامه الأولية الضرورية على الرغم من شعورهم بأنها ضرورية، وعزمهم بعض الأحيان على تعلمها ـ ولا يزال المرء على موقف الجهل وقلة العلم الذى كان عليه منذ عشرين أو خمسة وعشرين سنة، فلا تغير ولا اختلاف، ولاتبدل ولا انقلاب، فمن كانت صلاته خاطئة لا تزال خاطئة منذ خمسة عشر عاما مثلا، والذي لم يكن يعرف صلاة الجنازة، أو دعاء من أدعية الصلاة أوجزءا من أجزاء الصلاة، لايزال جاهلا بها على الرغم من الاستماع إلى مئات الخطب الدينية وشهور الحفلات الدعوية، ومجاورة العلماء، واحتفال الأسواق والمكتبات بالكتب الاسلامية، مما دل دلالة أكيدة صارخة على أنه وان كان هناك امكان عقلى لحدوث تغير فى حياته مع العيش فى تلك البيئة، ولكن التجربة على عكس ذلك .

وإذا فانه لا بد أن يهاجر لوقت محدود من تلك البيئة الراكدة غير الاسلامية إلى بيئة اسلامية حية نشيطة متحركة، حتى يعيش فيها متحررا من قيود البيئة الأولى وأغلالها من تاثير سيء، ويجد فرصة من أشغاله المرهقة، وتثور فيه العاطفة الدينية التي ضعفت واضمحلت من أجل معاكسة البيئة ومزاحمة الأشغال والاعمال، ويصحو فيه الوعي الديني والشعور الأسلامي الذي كان قد خمد، ويندفع إلى الدين يتعلمه ويطبقه في واقع حياته.

٤ ـ وكان يرى أن طراز الحياة الأسلامية الأصيل أن يسهم المرء المسلم في العمل الأسلامي وخدمة الأسلام، وتعزيز شأنه ورفع منارته، مساهمة شخصية، أو يساعد العاملين في هذا المجال عازما على مساهمة شخصية مهما سمحت له الظروف بذلك، وأن لا ينقطع عن ذلك الأ لعذر شرعي ملحّ، أو لمصلحة دينية، ولوقت محدود، وكان يعتقد أن الحياة المدنية الهادئة المشغولة بالتجارة وشئون الحياة المادية وحدها ـ وقد كان يصفها فعلا بـ «حياة الهدوء» مقابل حياة الهجرة والجهاد ـ حياة غير طبيعية حائدة عن الصراط الاسلامي المستقيم.

ان الحياة المدنية غدت منذ مدة طويلة حياة تجارية مادية صرفة، تتسم بكسب المعاش والاخلاد إلى الحياة الدنيا، والاكل والشرب، ولا شيء غير ذلك، وكان الشيخ يتالم منها، ويود أن لو عاش أهل المدن أيضا حياة «الهجرة والنصرة» وأن يكون ذلك عرفا متبعا لديهم.

كان لا يؤمن بالتقسيم فيما يتعلق بالحياة الأسلامية والعمل الأسلامي، حيث يعمل بعض الناس على خدمة الأسلام، على حين يكون البعض منقطعين إلى دنياهم يتقدمون فيها أشواطا بعيدة، وإلى تجارتهم وحرفتهم وصناعتهم، وما إليها، يتقنونها ويحذقون فيها، ويتربعون مكان الأستاذية، اما الأسلام فيكفيهم من جانبه أن يتقدموا إلى المسلمين بعض الأحيان بمعونة مادية مما يفيض عن حاجتهم.

كان الشيخ يرفض هذا التقسيم، ويقول : إذا كان الناس لا يؤمنون بذلك فيما يتصل بدنياهم فلماذا يريدون فيما يتعلق بالدين، وهل يرضخون أن يتوزعوا عمليات الأكل والشرب، واللبس مثلا، فياكل أحدهم

ويشرب أحدهم، ويلبس احدهم، ويكفي الكل؟ لا، إن كل واحد منهم، يرى كلا من هذه الأشياء ضروريا بالنسبة إليه بصورة شخصية.. فكذلك التقيد بواجبات الدين ومسئولياته، وتعلم ما لابد أن يكون ضروريا، لكل واحد من أبناء الاسلام إلى جانب كسب المعاش والانشغال بشئون الحياة.

اقامة الميواتيين بدهلي :

من اجل ذلك كله كان يرى القيام بدعوته ـ فيما بين مسلمي المدن ـ حاجة ملحة، وكان يريد إن يعرضها عليهم عرضا متحمسا قويا، لكنه كان يرى إن المواعظ والخطب وحدها لا تغني غناءا في هذا الشأن، وإنما الحاجة إلى نماذج عملية من دعاة الاسلام ممن يتمثل الاسلام في حياتهم وسلوكهم، فاما بدون ذلك فان الخطب والمواعظ تضر ولا تنفع، يقول في رسالة:

«ما لم تكن نماذج عملية أمامهم، لا تحرك الخطب المنطلقة من المنابر ساكنا منهم، ولا تدفعهم إلى العمل، وإذا لم يكن هناك تنظيم لهم للدخول في العمل بعد الخطبة، فانهم يتعودون على الأباء واساءة القول، ولا يتادبون في استخدام الألفاظ».

وانطلاقا من ذلك كله، بدأ يبعث جماعات الميواتيين إلى مدينة دهلي، وإلى أمكنة رئيسة اخرى، وكانت تقيم في مدينة دهلي اقامة طويلة، وواجهوا صعوبات وعوائق في بداية الأمر، فقد لا يسمح لهم القائمون على شئون المساجد بالمبيت فيها، وقد لا يتمكنون من قضاء الحوائج إلا إذا وجدوا ملجأ في مسجد الا بعد تجرع مرارة الحنظل، وقد يتالهم الناس بالقول البذيء، ويشكون منهم شكاية مصطنعة، فربما يضيقون ذرعا، ويتضجرون من معاملة أهل المدن معهم، فيشكون ذلك إلى امرائهم ومسئوليهم، فيشفعون لهم إلى السكان، ويجاملونهم، ويتملقون لهم، وقد يمسحون دموع اخوانهم الميواتيين بالنصح والاقناع، والقول العذب الجميل، غير أن ذلك كانت محنة يومية، وجهادا قبل جهاد يقومون به كل يوم (١)، لكن الصعوبات زالت مع الأيام، وبدأت نظرة الناس إليهم تتغير، واصبح الميواتييون يوما موضع الحب والاحترام بفضل تضحيتهم وايثارهم، وحماسهم واخلاصهم.

الاقبال على العلماء :

وقد قرّر الشيخ منذ أول يوم أن هذا العمل الغريب الدقيق الحساس ـ الذي هو مشفوع بشيء كثير من مراعاة دقيقة ـ لا يمكن الأطمئنان إليه ما لم يدخل فيه أهل العلم والصلاح، يشرفون عليه ويقومون بتوجيهه، كان يود أن يقبل عليه منْ هم أهل لذلك، ويضعوا مواهبهم في تصعيد هذا العمل حتى تترسخ جذور دوحة الأسلام، ويتقوى ساقها، وتخضر اغصانها وأوراقها.

ولا يريد من العلماء أن يسهموا في ذلك بالخطب والمواعظ فحسب، بل كان يريد منهم أن يقوموا بمحاولة نشر الاسلام، وتبليغ الدين على طريق السلف، بجولات ورحلات وزيارات ولقاءات، يقول في رسالة إلى الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي:

«اني ارى منذ مدة، أن هذا العمل لا يصل إلى مرحلة الكمال والتمام ما لم تنتبه الطبقة المثقفة، وتؤم الشعب، وتقرع أبواب بيوتهم، وتحتك بهم، وتتجول من قرية إلى قرية، من مدينة إلى مدينة كالدهماء، لأن لحركية أهل العلم وعملهم تأثيرا في قلوب الشعب لن يكون لخطبهم الحماسية النارية، إن حياة السلف تدل على ذلك، وذلك شيء ليس يخفى على أهل العلم أمثالكم..».

وكان يعتقد بعض العلماء والشيوخ الذين يعملون مدرسين، أن مساهمة المدرسين والطلاب في هذه المحاولة الدعوية، والاصلاحية، تكون عائقة لهم في سبيل الأشغال العلمية، والدراسية، والتقدم العلمي، غير أن المنهاج الذي كان يريد الشيخ أن يسير عليه الطلاب والمدرسون فيما يتعلق بهذا العمل الدعوي، كان في الواقع منهاجا لهم مستقلا لرقيهم العلمي واتقانهم لما يدرسون او يتعلمون يقول في رسالة:

«ان هذا الدين المبارك إنما ينمو ويترقى بقدر رقي العلم ونموه، وفي ظلال رقي العلم وتقدمه، فإذا كان هناك في حركتي ما يمس العلم وينال من المحاولة العلمية، فان في ذلك خسرانا مبينا لي، اني لا أهدف من التبليغ إلى منع المتقدمين في العلم، أو مسهم بالضر، بل إنما أريد انهم في حاجة إلى تقدم أوفر وأكثر، وأن المكانة التي يصلون إليها اليوم في الرقي العلمي لا يكون غناءا لهم»..

كان الشيخ يريد أن يتحرك الطلاب من خلال هذا العمل الدعوي تحت اشراف اساتذتهم على أنهم كيف يؤدون ما يجب عليهم نحو العلم، وكيف ينفعون الخلق بما تعلموه حتى يكونوا فائزين بعلم نافع لهم ولعباد الله، يقول في رسالة:

«... يا ليته قد تم التمرن في أيام التحصيل على القيام بعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت اشراف الأساتذة، فتكون علومنا نافعة مثمرة، ولا نأسف فيما بعد أنها كانت نفاية وخواء وتحولت ظلمة وجهلا وضلالا، إنا لله وإنا إليه راجعون».

على كل فانه أراد أن تصل دعوته إلى الدوائر التي تمتاز بالعلم والتدين فوجّهها إلى المراكز العلمية والدينية.

مبادىء العمل الدعوي في المراكز الدينية :

أوفد الشيخ الميواتيين إلى «ديوبند» و«سهارنفور» و«رائفور» و«تهانه بهون» وأكّد عليهم أن : لا يتحدثوا بالدعوة والتبليغ في مجالس المشايخ، وأن يقوم خمسون أو ستون شخصا منهم بالجولات الدعوية في القرى المجاورة، وأن يتجمعوا جميعا بعد أسبوع في البلدة، ثم يتفرقوا منها جماعات إلى القرى والارياف ولا يذكروا الدعوة عند الشيوخ الكبار بأنفسهم الا أن يسائلوهم، يقول في رسالة إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

«ان لي أمنية اعيشها منذ مدة طويلة، أن تؤم هذه الجماعات الدعوية زوايا المشايخ، وأن تستفيد منهم متقيدين بآداب الزوايا، وأن تقوم بالدعوة فعلا خلال ذلك في أوقات خاصة، في قرى مجاورة وأرجوكم أن

تحددوا طريقا لذلك من قبل مع التشاور مع الواردين من تلك النواحي، ومن الأغلب أن يحضر هذا العقد مع عدة رفقاء، وأنوي التوجه بهذه المناسبة إلى «ديوبند» و«تهانه بهون».

اقتناع أهل القلب واليقين بهذا العمل الدعوي :

وعلى ذلك فقد زالت تلك الشكوك والشبهات التي كانت تساور بعض أهل اليقين والاحسان، فيما يتعلق بهذا العمل، واقتنعوا به.

كذلك كانت الجماعات في «تهانة بهون»، تعمل في القرى المجاورة، وكان الواردون يتحدثون إلى الشيخ أشرف علي التهانوي (٢) عن أعمال الجماعات، وخدماتها ومنجزاتها، وعن المبادىء التي تلتزمها، ومظاهر الخير والبركة التي شهدتها تلك الأمكنة نتيجة تجوال تلك الجماعات ونزولها في تلك المواطن، وكان الشيخ التهانوي في شك كبير من ذلك، لأنه كان يعلم أن العلماء والافاضل الذين تخرجوا في المدارس، وقضوا في سبيل التعليم ثمان أو عشر سنوات أو اكثر، ولم يقدروا بعد كل جهد جهيد، أن يكسبوا نجاحا كبيرا في هذا المجال، بل كانت النتيجة معكوسة، ونجمت فتن جديدة ومفاسد كثيرة، فكيف بهؤلاء الميواتيين الذين لم يتلقوا التعليم والتربية البتة، استطاعوا أن يقوموا بهذا العمل العظيم الدقيق.. على كل فكان الشيخ التهانوي لا يطمئن إلى ذلك - بحكم طبيعته المتحفظة المتأنية الحكيمة - ويخاف أن تكون هذه المحاولة نواة فتنة جديدة، ولكن أخيرا حصل له الأقناع في هذا الشأن بما تتابع عليه من أخبار البعثات الدعوية الطيبة، وبما رأى بأم عينيه من تباشير الخير والبركة التي ظهرت من اجل عملها، ومن هنالك عندما أراد الشيخ محمد الياس أن يتحدث مع الشيخ التهانوي في هذا الصدد، قال التهانوي : لا حاجة إلى الدلائل، لأن الدلائل إنما تقدم من أجل تقرير شيء وتأكيده، وقد تأكدنا من جانب هذا العمل، واقتنعنا به عن طريق نماذج عملية، فنحن في غنى عن كل دليل، وأحمد الله، وقد حولتم اليأس رجاءا.

ومما كان يجعل الشيخ التهانوي لا يطمئن إلى ذلك، إنه كان يفكر أن هؤلاء الميواتيين أنى لهم أن يقوموا بمسئولية عرض الدعوة والتبليغ دون علم ودراسة وتربية، ولكن زال شكه ذلك حينما أكد له الشيخ ظفر أحمد التهانوي (٣)، أن هؤلاء المبلغين لا يتعرضون لشيء غير الذي تعلموه وتمرنوا عليه بصورة عملية.

حماس الشيخ محمد الياس وعزيمته وقلة اقبال العلماء:

وقد رسخ ايمان الشيخ محمد الياس بهذا العمل وافاديته، وزاد حماسه، وقويت عزيمته، على الحين الذي كان أهل العلم والفضل لا يقبلون عليه اقبالا لائقا، مما كان يقلقه ويؤلمه كثيرا، وكان اعتقاده يزداد مع الأيام إن هذه المحاولة الدعوية التي نهض بها هي علاج كل فتنة، ودواء كل داء، وحل كل مشكلة، يقول:

«لا أدري أية قوة استخدمها للافهام والاقناع، وبأي لسان اصارح، وبأية قوة اثبت في ذهني وبأي حيلة احول المعلوم البديهي الواضح كل الوضوح مجهولا، أو أجعل المجهول معلوما، اني اؤمن ايمانا كاملا

بأنه ليس هناك «سدّ سكندري عال» امام هذا التيار الجارف، والسيل العرمرم من الفتن العمياء، والظلمات المتراكمة، الا المساهمة في هذه المحاولة التي نهضت بها بكل قوة، وبكل حماس وعاطفة، وبالقلب والقالب، ويصرف كل جهد وعناية إليه». .

ويبدي عن هذا القلق، ويدل على هذا الخطر الذي كان يلمسه في رسالة اخرى يقول فيها:

«من العبد الحقير الفقير محمد الياس، الحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات، اللهم لك الحمد شكرا، ولك المنّ فضلا، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فاني لا اجد الكلمات التي ابدي بها عن القلق البالغ الذي يرافقني، وأنا اكتب اليكم هذه السطور، صديقي الحبيب، الأمر الذي اريد تسجيله أن إذا كان من فضله القيام بهذه الحركة، ما نلمسه من رضا الله جل وعلا، ونصره وعونه ، وتقريبه وفضله وكرمه، فانه في نفس الوقت نخاف بقدر ذلك، الحرمان والخسران، واللوم والشؤم، والشقاء، من أجل عدم تلقي هذا الضيف الالهي المُبجّل باكرام لائق وحفاوة مستوفاة».

الا أن الشيخ كان يتألم في قلبه، وينوب توجعا في داخله، ويحاول إلى حد ممكن أن لا يبوح بكلمة شكوى من ذلك، ولم يكن موقف الشيخ أن يحمل المسئولية احدا، بل عندما يشكوا احد من غير العلماء اهمالهم وقلة حماسهم في هذا الشأن، يرد عليه الشيخ بقوله:

«ايها الأخوة.. إذا كنتم لا تملكون أن تنفضوا ايديكم من الأشغال التي ترونها بدوركم انها ماديا صرفة، فكيف بهؤلاء العلماء أن يتنازلوا عن الوظائف التي يرونها ـ عن جدارة واستحقاق ـ انها في صالح صميم الدين والمصلحة الاسلامية؟!».

أسباب قلةْ اقبال العلماء :

وكانت هناك اسباب فيما كانت هذه الدعوة لا تستقطب من اهتمام لائق، ولا تتلقى من عناية مستحقة.

١ ـ كان العهد عهد الحركات والدعوات، وكانت القلوب والاذهان مصروفة إليها، فكان من الصعب أن يقبل الناس على حركة الشيخ الهادئة الجادة البناءة، في العهد الذي يموج بالحركات الصارخة ذات الضجيج والضوضاء، وكانت تجربة الحركات والدعوات المرة التي عاشها الناس، تقف حجابا دون نظرهم إلى حركة الشيخ الياس نظرة الأمل والاعجاب.

٢ ـ لم يكن الناس يعرفون عن هذه الدعوة الا معرفة ضئيلة غير مشبعة، ولا يعرف فصها ونصها الا المتصلون به، اما المترامون ولا سيما عامة أهل العلم، فكانوا لا يعرفون عنها شيئا، وذلك إنه لم تكن هناك عناية ما بما تلقاه الدعوة من نجاح، وتحققه من خير، وتنشره من بركة وتشهده من نتائج سارة.

٣ ـ وكانت كلمة «التبليغ» التي كانت عنوان هذه الدعوة، والكلمة الكثيرة الاطلاق عليها، تقف سدا منيعا دون فهم عمقها وشمولها وحقيقتها بعيدة المدى، فكان الناس لا يقبلون عليها ظنا انها حركة كحركات سطحية أخرى كثيرة تطلع وتغرب صباح مساء، أو يرونها فرض كفاية، يكفي قيام بعض الافراد

به عن البعض الآخر.

٤ ـ كان الشيخ محمد الياس هو الشخص الوحيد الذي يعرض هذه الدعوة على أهل العلم والطبقة المثقفة، وكان يأتي حديثه ملتويا غامضا دقيقا، مشتملا على معاني عميقة، ممدا بلفتات واشارات بارعة، اضف إلى ذلك العقدة التي كانت في لسانه، وحماسه الزائد، وعاطفته الملتهبة، فكان الواردون الجدد الذين كانوا يفاجئون بذلك لأول مرة، قد يواجهون اضطرابا فكريا، واستحياشا عقليا، ولا يتوصلون إلى عمق الدعوة وأصالة الفكرة، ومغزى الحركة.

ثم إنه كانت قد تجرى على لسانه معان في غاية السمو والعمق، لا تشتمل عليها الكتب المدرسية المتداولة، وكانت تلك المعاني تأتي بكلمات غير عادية لا يصطلح عليها الناس عامة، مما يجعل العلماء قد لا يتقاربون إلى الدعوة في الفرصة الأولى، ولا يسعهم أن يصرفوا في ذلك فرصة ثانية.

٥ ـ وما كان الناس ليعلقوا على الشيخ املا كبيرا، عندما كانوا يرون أن الواقفين بجانبه إنما هم هؤلاء الميواتيون السذج، كانوا يرون الشيخ كمرشد وشيخ طريق ومرب روحي لهؤلاء الميواتيين قد استطاع أن ينفخ فيهم روحا دينية جديدة، ويثير فيهم معان الأيمان واليقين.

وربما كان ذلك من الخير ـ نظرا إلى بعض النواحي المهمة ـ فقد أتاح ذلك لهذه الحركة أن تجتاز مرحلة التقدم والازدهار الطبيعي مصونا في سياج الخمول والمجهولية وكان ـ الله العليم الحكيم ـ قد أراد لهذه الحركة بصورة خاصة أن لا تكون محط الأنظار، ومصرف اللفتات، ومهبط العنايات، الا في أوانها.

التألم القلبي :

ولكن الآن كان قد آن لهذا المنبع الفياض أن يطفح ويسيل، ويسقى القاصي والداني، وأن يعم القريب والبعيد، ويتوسع نطاقه.

وكانت الدعوة تسيطر على أعصاب الشيخ، وتملك عليه عقله وقلبه، وتكثر على لسانة معان علمية عالية، ويتوصل فكره يوما إلى أساليب ومناهج جديدة متنوعة للدعوة، ويجد تأييدها في المآخذ الأصيلة من الكتاب والسنة وسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحياة الصحابة رضوان الله عليهم، وفي ناحية اخرى لم يكن يستمع إلى هذه العلوم والمعارف ويحاول اساغتها وتشربها الا فتية من شباب المثقفين والميواتيين السُذّج الذين تربّوا في حضنه وتخرجوا في صحبته، اولئك الذين ما كان لهم عهد بالمصطلحات العلمية الجارية على لسانه.

ولئن كان الميواتيون لا يسيغون هذه المعاني العلمية السامية الدقيقة، لكنهم كانوا متجاوبين مع هذا العمل الدعوي روحيا، يفوقون أهل العلم وسكان المدينة في قوة الأرادة والعزيمة وقدرة العمل والتحرك، وكانوا عصارة جهود طويلة، ومحاولات مضنية متواصلة، وضعها الشيخ في تخريجهم طوال عشرين سنة تقريبا، فكانوا مادة الحركة، ووقود الدعوة... وكان الشيخ يدرك هذه الحقيقة، وقد اعترف بذلك مرات

عديدة، يقول في رسالة إلى زملاء ميواتيين :

«قد وضعت كل ما كنت أملكه من قوة وهمة فيكم أيها الأخوة الميواتيون، وعُدت لا أملك الا رصيدا الا أن اضحي بكم أنتم، فأدركوني وساعدوني».

ويقول في رسالة أخرى :

«ان المنصرفين إلى الأشغال الدنيوية، في كثرة كاثرة، أما مهاجرة الوطن ومفارقة الأهل والعيال في سبيل نشر الدين، فقد وفق الله لذلك اليوم الميواتيين وحدهم».

اتصال توافد الجماعات التبليغية إلى سهارنفور:

وكان يريد أن يضع المراكز العلمية والدينية في مديرية «سهارنفور» في الاعتبار، ويود أن تكون مساهمة رجال العلم والدين وعامة المسلمين في تلك المنطقة في هذا العمل أوفر، وقد دأب يحرضهم على ذلك باللسان والبيان، وفعلا كانوا يشتركون في عدد لا بأس به في الحفلات الدعوية التي كانت تعقد من حين لآخر في ميوات، وكان نصيب اساتذة مدرسة مظاهر علوم بمدينة «سهارنفور» في ذلك اكبر ولا سيما الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي، والشيخ عبداللطيف عميد المدرسة. لكن الشيخ الياس كان يريد أن ترتفع نسبة المساهمة والاشتراك، فأكثر من ايفاد الجماعات الدعوية إلى «سهارنفور» وما جاورها.

الجولات التبليغية في مناطق «مظفرنكر» و«سهارنفور» :

وقام مع أساتذة «مظاهر علوم» بالجولات الدعوية في مناطق «سهارنفور» من «بهت» و«مرزافور» و«سليم فور»، وفي قرى اخرى وعقد حفلات واجتماعات.

وخرج بجماعة تبليغية كبيرة العدد، وقام بجولة تبليغية في نواحي «كاندهله» في الفترة ما بين الثالث عشر من جمادي الأولى، والعشرين من جمادي الآخرة سنة ١٣٥٦هـ، وكوّن جماعات دعوية، وبثها في المناطق، وقد تغلبت في هذه الرحلة عليه عاطفة، أداء الحقوق نحو المواطنين، ولم يكن عنده طريق اقوم لهذا الأداء الا القيام بالتبليغ فيهم، لأنه كان يرى ذلك خير هدية يقدمها احد إلى احد.

وقرر في سنة ١٣٥٩هـ أن يتتابع توافد جماعات الميواتيين إلى «سهارنفور» ولا يغادرها الجماعة الأولى الا حين تصل إليها الجماعة الثانية، وكانت الجماعات والبعثات الدعوية تقيم في مبان مدرسة «مظاهر علوم» وبعد سنة كاملة استأجر بناء مستقل سنة ١٣٦٠هـ لهذا الفرض خاصة.

ورأيت الجماعات تواصل زياراتها لتلك القرى والبلدان الآهلة بالعلم والدين إلى حد كبير، وقد يكون الميواتيون الأميون، موضع الانتقاد والسخرية وينظر إليهم نظرة الاستغراب، ويتساءلون : كيف يكلفون بالدعوة والاصلاح، وهم بدورهم في حاجة إلى الاصلاح والتعليم، مما اضطر الشيخ محمد الياس الى أن

يجلي الحقيقة، ويضع النقاط على الحروف، فقال في رسالة:

«.... لا تظنوهم ـ الميواتيين ـ مصلحين، وإنما هناك شيء واحد لا بد أن تتعلموه منهم الا وهو مفارقة الأهل والوطن من اجل نشر الدين، وأما في غير هذا الشيء، فلابد أن تروهم في حاجة اليكم، وإنما ينتقدهم الناس لأنهم يرونهم مصلحين».

توافد الناس من مناطق بعيدة :

في ٥٩ ـ ١٣٥٨هـ نشرت مقالات في بعض المجلات والجرائد عن هذه الدعوة والحركة، وتسامع بها الناس كثيرا في مناطق نائية عن ميوات ودهلي فتوافد كثير من الناس، ممن كانوا يحرصون على هذا النوع من العمل الدعوي، أو على خدمة دينية على اي طريق، واجتمعوا بالشيخ محمد الياس وزاروا منطقة ميوات، وكان من هؤلاء السعداء بعض اساتذة دار العلوم ندوة العلماء بلكهنئو، وقد جذبت إلى ذلك انطباعاتهم عن هذه الدعوة اناسا آخرين، وقد عبّر بعض اولئك الذين اطلعوا على الدعوة باكتشاف جديد، وتساءلوا في دهشة واستغراب، كيف أن هذا العمل الكبير ظل يتم إلى هذه المدة الطويلة في هذا الصمت والخمول؟

وأبدى الشيخ سروره البالغ على توافد هؤلاء الضيوف الجدد، وتلقاهم بكل ما عنده من حفاوة بالغة، وعلى ذلك فقد بدأت الطبقة المثقفة والمشتغلون بالعلم والتعليم والتدريس يقبلون على هذه الحركة، واحتفى بهم الشيخ احتفاءا جعلهم في حيرة واستعجاب، فقويت رغبتهم في العمل، وكثر اقبالهم.

تنسيق العمل الدعوي في مدينة دهلي :

ولتنسيق العمل الدعوي في مدينة دهلي، وتصعيد نشاطاته، نصب الشيخ الحافظ مقبول حسن اميرا على جميع الجماعات التبليغية في دهلي، وانتظمت الجماعات وانضبطت الجماعات، وزادت فعاليتها، بمحاولات الحافظ مقبول حسن والحافظ فخر الدين.

وقرر الشيخ أن تجتمع الجماعات كلها ليلة الجمعة في المقر الدعوي في «بستي نظام الدين» بدهلي، وتجتمع يوم الأربعاء الأخير من كل شهر في المسجد الجامع الكبير، وتتحدث عن منجزاتها، وتتخذ البرنامج كما يأتي مع التشاور فيما بينها، كل ذلك تنشيطا للعمل، وزيادة للاتصالات فيما بين الأعضاء والعاملين، وقد كان الشيخ يشهد هذه الأجتماعات واللقاءات ويحاول أن يشهدها علماء وصلحاء آخرون، وكان يوجه دعوة عامة للحضور في نظام الدين ليلة الجمعة، وكل من يقضي ليال في نظام الدين، ينشأ في قلبه تجاوب روحي مع هذه الدعوة، وفي اغلب الأحيان يتناولون العشاء في نظام الدين جماعيا، وكان الشيخ يتحدث إليهم في الموضوع قبل صلاة العشاء وبعدها، وربما يتحدث بعد صلاة الصبح أيضا، وقد يطلب إلى بعض العلماء والخطباء الآخرين من الحضور ممن كان فيهم بأنه يوفى حق التعبير عن اغراض الدعوة، وقد يحضر صلاة الصبح من لم يحضروا صلاة العشاء، من وجهاء مدينة دهلي، والطبقة المثقفة بالثقافة العصرية، وبعض اساتذة «الجامعة الملية» بدهلي، ولا سيما الدكتور ذاكر حسين (٤)، الذي كان

يحضر صلاة الصبح، ويعود بعدها ليستمع إلى حديث الشيخ، وكانت تزداد نسبة الحاضرين في اجتماع تلك الليلة مع الأيام، مما نفخ في العاملين روح العمل والنشاط، وتتحرك روح الاقبال على الدعوة في الواردين الجدد.

دبيب روح الدين في تجار دهلي :

كان تجار مدينة دهلي متصلين بالشيخ اتصالا وثيقا، اما الشيوخ المتقدمون في السن منهم، فكان اتصالهم مستمرا منذ أيام والده واخيه الأكبر، والشباب منهم توارثوا هذا الحب والاعجاب من سلفهم وشيوخهم، وكثير منهم عقدوا الأتصال معه بأنفسهم.

على كل فان الذين تبنوا دعوة الشيخ ـ بعد الميواتيين ـ واحبوا الشيخ حبا جما واخذوا بأمره في كل احترام واعتبار ووقار، ووفقوا إلى خدمته والبرّ به، أكثر من غيرهم على الأطلاق، هم هؤلاء التجار في مدينة دهلي، كانوا يواصلون الحضور في مجلس الشيخ بنظام الدين، وخصوصا في ليالي الجمع، وفي الأغلب يقضون الليالي هناك، ويشهدون الأجتماعات التبليغية في الميوات بالباصات، وقد يحملون الطعام الذين صنعوه في دهلي معهم للاخوة العاملين، ويقومون بجولات دعوية في المناطق المجاورة مع اخوتهم الميواتيين.

وكان الشيخ يحضر مناسباتهم في حب وعطف، لكنه ما كان يتغافل لحظة عن وظيفته في أية مناسبة وأي مكان، وأي أوان، كان يعطف على صغارهم عطف الآباء على الأبناء، ويقاسمهم المسرات ويشاطرهم الأحزان والآلام، ولكنه لا يفوّت فرصة دون اصلاحهم وشغلهم بالوظيفة الأصيلة، ويعامل كبارهم ـ ولا سيما الذين كانت لهم علاقة مع والده وشقيقه الأكبر ـ معاملة الأحترام والاكرام، ولكن يعاتبهم إذا رأى اهمالا منهم في جنب الدعوة استنادا إلى العلاقة، ولكن ذلك كله ما كان ينال من علاقتهم وحبهم.

وزاد اقبالهم على الدين، وتمسكهم بالشريعة، وانصهارهم في بوتقة الأسلام والايمان، وتعاليم الحديث والقرآن، من اجل اسهامهم في الدعوة والتبليغ، واحتكاكهم بالعلماء ورجال الدين في الرحلات، واختلافهم إلى الشيخ، واتصالهم به اتصال الحب والاعجاب، والطاعة والانقياد، وظهر في تعاطيهم، واخلاقهم وعاداتهم، ومظاهر سلوكهم وحياتهم، تغير ملموس، وما كان الشيخ يتعرض للجزئيات والفروع، وإنما كان يعرض الأصول والمبادئ، ولكنهم اقبلوا على الدين بأجزائه وجزئياته، يطبقونه في واقع حياتهم، ويمثلونها تمثيلا عمليا صادقا، لأنهم احبّوا الدين واعجبوا به اعجابا كبيرا، وتجلّت قيمته في عيونهم، ومن اجل ذلك كله امتازوا عن اخوانهم الآخرين، حتى إذا رآهم الناس عرفوا أنهم من المتصلين بالشيخ محمد الياس والمسْهمين في دعوته وحركته، وبلغ بهم التغير إلى أن التجار الذين كانوا يكرهون أن يوظفوا اصحاب اللحى في دكاكينهم، عادوا يعفون اللحى بأنفسهم، والذين كانوا يرون في كون موظفيهم مواظبين على الصلاة ضياعا لأرباحهم، وكسادا لتجارتهم، بدأوا يقومون بجولات تبليغية في أوقات تفتح فيها الدكاكين، ويكثر فيها الاقبال عليها، ويتقاطر فيها المشترون، ولم يعودوا يكرهون المشي على الأقدام، حاملين امتعتهم وفرشهم على كواهلهم في الأسواق وعلى مرأى من الناس ولم يشعروا بالذل والعار والشنار في افتراش -

الغبراء، وغمز ارجل الأصدقاء وصنع الطعام بأيديهم، والتردد على ابواب الفقراء والمحتاجين والمجردين من حارة إلى حارة، ومن حي إلى حي، على كل فتحولت حياة كثيرين كليا، فما هي التي كانوا يعرفونها ويعيشونها، وذلك أن البيئة قد تغيرت، فتغيرت العقلية والنفسية.

اقبال الأثرياء وموقف الشيخ المبدئي منهم :

تسامع بهذا العمل الأسلامي العظيم تُجّار المسلمين في دهلي وخارج دهلي، واطّلعوا على نفقاته الكبيرة وتكاليفه الباهظة، فعرضوا على الشيخ معونات مادية كبيرة، ومبالغ خطيرة، ولكن كان موقف الشيخ منهم موقفا مبدئيا حاسما، كان الشيخ يؤمن بأن المادة لا يمكن أن تقوم مكان الأنسان قط، إنه ككناسة تتجمع من احتكاك الأيدي البشرية فأنى لها أن تسدّ مسد الأنسان الذي لا يقوّم، فكان يقول لكل من يقدم إليه معونة مادية : اننا لا نحتاج إلى اموالكم، وإنما نحتاج إلى انفسكم أنتم، وكان لا قبل الا معونة من يسهم في العمل مساهمة عملية، وكان يرى أن ذلك هو الطريق المطلوب الصحيح لدى الشريعة الأسلامية للانفاق في سبيل الله، وكان ذلك هو المتبع في فجر الاسلام، فان الذين نرى اسماءهم لامعة في رأس قائمة المنفقين في سبيل الله واعلاء كلمة الله في الأرض، هم اولئك الذين كانوا في طليعة المسهمين في العمل الأسلامي مساهمة عملية، بصورة شخصية.

وجملة القول : أن الشيخ إنما كان يقبل المعونة المالية ممن كانوا يسهمون فعلا في حركته الأصلاحية والدعوية، الذين كان يثق باخلاصهم وحبهم، وكان في طليعة هؤلاء السعداء في مدينة دهلي الشيخ الحاج محمد نسيم الذي كان يتجر في الزر، والشيخ محمد شفيع القريشي، وغيرهما.

اجتماعات «ميوات» الدعوية :

وفي الأغلب كانت تعقد حفلة في كل شهر في مكان بميوات، وحفلة كبيرة في كل عام بمدرسة مدينة «نوح» يشهدها الجماعات التبليغية في دهلي، وتجار دهلي، والمقيمون بنظام الدين، وكثير من اساتذة وعلماء «مظاهر علوم» بسهارنفور، ودار العلوم بديوبند، ودار العلوم ندوة العلماء بلكهنؤ، ومدرسة فتحبوري بدهلي القديمة، ويحضرها الشيخ مع رفقته جميعا، ويشغل الطريق كله بالحديث الدعوي، ومبادئ العمل الدعوي، بأسلوب حكيم ملأه الحماس والعاطفة والتألم، وكان الرفقة ـ الذين كان جلهم من الأعضاء العاملين ـ يشعرون كأنهم يستمعون إلى حفلة متنقلة، بدأت من نظام الدين، وستنتهي بالوصول إلى المنزل.

وما أن كان أهل القرية يتسامعون بوصول الشيخ، حتى يتقاطرون إليه خارج المدينة يستقبلونه، ويتلقونه في موجة من الفرح والسرور، يصافحونه ويعانقونه في حب واعجاب، ويدخل هذا الجمع الحاشد ـ وفيه الأطفال والشباب والشيوخ ـ القرية، فيتحلق حوله مئات من الناس، ويصافحهم الشيخ في حب وحنان، ويعانق بعضهم أيضا، ويمسح بيديه على رؤوس بعض منهم، ثم يجلس فيهم ويحادثهم.

وكان يقضي الأوقات كلها بمرّ ايام هذه الحفلات والاجتماعات فيما بين هؤلاء الميواتيين المساكين، ويبيت في حجرة من المسجد، او ازاء قناته، ويمضي النهار كله ومعظم أوقات الليل في الحديث معهم،

ويزيد نشاطه وانتعاشه، وقوته وحماسه مع الدخول في ميوات، وكانت العلوم والحقائق والمعارف تفيض على لسانه، وكان الميواتيون يستمعون إليها وهم آذان صاغية وقلوب واعية، وتنفذ في قلوبهم وتتذوقها نفوسهم، اساغوها أو لم يسيغوها، وكان الشيخ لا يتوقف لسانه، ولا يهدأ باله، ولا يستجمّ الا قليلا، فكان يعود من ميوات وهو مُحطّم ممزّق، وقد تصيبه الحمى ويغص بالكلام.

وتطبع هذه الاحتفالات والاجتماعات الجو كله بطابع الأيمان واليقين والروحانيه والربانية، والاشراقة والنورانية، يؤثر على القلوب، ويرقق النفوس، مهما كانت قاسية أبية، وتعمر البيئة آهلة بالذكر، والمساجد معمورة بالذاكرين والركع السجود، ولا يجد المرء مكانا في المسجد إذا ابطأ قليلا، وقد تقوم الصفوف على الشوارع والطرق، ويكون الهجيع الأخير من الليل ووقت السحر معنى طيبا جذابا بصورة خاصة، يبعث الأيمان ويغذي الروح، وحيث كان يبيت هؤلاء الميواتيون، الحريصون على دينهم، الغيورون على عقيدتهم، المتوقون لحب الله ورسوله في فناء المسجد ولا يظلهم الا السماء، ولا يغطيهم الا الندى، والايام ايام برد قارس، وشتاء قاتل، ويستمعون إلى الخطب والاحاديث الدينية صامتين صامدين، لا يبرحون مكانهم ساعات طوالا، في ليلة مطيرة شاتية، وتحت خيام متقطرة، واشجاره متمطرة.

وكانت الخطب والمواعظ في أمثال تلك الحفلات في درجة ثانوية، ولا تكون مقصودة منشورة، وإنما المطلوب هو محاولة تكوين الجماعات الدعوية، وارسالها الي الأرجاء، وكان ذلك هو المقياس الذي يقاس به نجاح الأجتماعات واخفاقها، حيث يوضع في الأعتبار، كم جماعة تكونت وخرجت، وكم وقتا ستشغله في الجولات والرحلات الدعوية، وكم جماعة تهيأت للخروج إلى خارج المنطقة إلى الولاية الشمالية وما إليها، وكم جماعة رضيت بالتجوال في داخل المنطقة والقرى المجاورة، وذلك هو الشيء الوحيد الذي يطلبه الشيخ من الحاضرين والمستمعين، ويراقب الاجتماع بنفسه من هذه الناحية، ويرى كم طلبا إلى الحضور لذلك، وكم ألح عليهم في هذا الشأن، ثم أن الميواتيين المُحنّكين في العمل التبليغي، والاعضاء العاملين من مقيمي نظام الدين، يجمعون أقيال القبائل الميواتية، وعريفي الأسر والبيوتات، ووجهاء المناطق في ناحية، ويتحدثون إليهم في الموضوع، ويستعينون في اعداد الجماعات التبليغية الجديدة.

ولا يطيب له طعام ولا شراب، ولا يهدأ له بال، ولا يكتحل بنوم، ما لم يتم هذا العمل، ولم يكن ليغادر القرية، ما لم يطمئن من هذه الناحية، ولئن اطمأن من هذا الجانب، عزم على العودة إلى نظام الدين، ثم لا يمنعه من الرحلة اصرار المستضيفين، ولا الحاح المخلصين، ولا ما اصابه في سبيل المهمة من تعب ونصب.

واعضاء الأسرة العاملة في المقر الدعوي بنظام الدين، كانوا يحضرون القرى التي تعقد فيها الأجتماعات، قبل مواعيد الأحتفالات، ويعملون على تهيئة الجو، وتمهيد الأرض، ويثيرون الحرص - بالجولات والزيارات - في الناس عل الحضور في الأحتفال، والرغبة في الأستماع، والجدارة للاستفادة مما سيلقى في الأجتماع من خطب ومواعظ.

ويقيمون بعد الأجتماعات اياما، يستقلّون اولئك الذين استعدوا للخروج في الجولات والرحلات

الدعوية، ولا يعودون إلى نظام الدين الا حين تتم جميع المراحل، ويتم التخطيط وبرمجة العمل الدعوي، وتحديد مناطق الجولات وايفاد الجماعات.

وكان سكان القرية يوفون حق القرى والاكرام، ويستضيفون الحاضرين - القابلين من ميوات وخارج ميوات - الذين يبلغ عددهم إلى الآلاف، في سماحة وشهامة، إلى ايام، وعلى الرغم من ذلك لا يشبع طموحهم، ولا ترضى رغبتهم في الأكرام، ويتأسفون على انفضاض الأجتماع، ومغادرة الضيوف، إن شهامتهم جددت ذكرى العرب الأجواد، الذين عجنت طينتهم بالقرى واكرام الضيف (٥).

وقد خرّج الشيخ هؤلاء الميواتيين على اكرام المسلم أيا كان أصله وفصله، وعلى تعظيم واحترام أهل العلم والدين، وبلغت بهم التربية على هذا الجانب إلى أن كل ميواتي يرى كل وافد من الخارج كأنه محسنه الديني الذي تلقى منه الدين والايمان، وكثير من الوافدين يعودون يتأسفون على حالهم وقد يخافون على انفسهم النفاق والرياء، حينما يدرسون ما يتمتع به الميواتيون السذج القرويون، من حماس ديني ، وغيرة ايمانية، وعاطفة اسلامية، وروح الأخلاص، والحب والود، والتواضع وانكار الذات، ورقة القلب وتألم الصدر، والحرص على العبادة والذكر، وما يتجلى في حياتهم من السلوك الأسلامي والطابع الأيماني والقرآني.

وقد سأل الشيخ رجلا قد عاد من مثل تلك الحفلة الدعوية في ميوات : ماذا وراءك؟ فقال : يا سيدي ! عدت استحيي أن اسمي نفسي مسلما بعد ما رأيت هناك من مظاهر الحياة الأسلامية الأصيلة.

الاحتفال الدعوي الكبير في «نوح» :

عقد احتفال كبير في ٨-٩-١٠ من ذي القعدة سنة ١٣٦٠هـ - الموافق ٢٨-٢٩-٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٤١م في بلدة «نوح» بمديرية «جرجانوه» وشهدها حشد انساني هائل لم تشهد ميوات في مكان واحد وآن واحد قط، يقدر عدد الحاضرين من ٢٠-٢٥ ألفا، وجلهم قد حضروا «نوح» من مسافة ٣٠ أو ٤٠ ميلا، ماشين على الأقدام، حاملين معهم أفراشهم وأرودتهم وأقواتهم، ولا يقل عدد الضيوف الحاضرين من خارج ميوات عن الف شخص الذين كانوا نازلين في مبنى «معين الأسلام»، يتناولون الطعام في رحابها.

وصلى بالناس الجمعة في سرادق الأحتفال الشيخ المحدث القائد المجاهد حسين احمد المدني المتوفى في ١٣ جمادي الأولى سنة ١٣٧٧هـ وكانت الجمعة في جميع مساجد البلدة أيضا، ولكنها لم تسع المصلين فصلوا والشوارع والطرق، والسطوح، وسقوف الغرف والعلالي، وتوقف سير المرور.

وبدأ الأحتفال بعد صلاة الجمعة، ولا رئيس، ولا لجنة الأستقبال، ولا العاملين رسميا على اقامة النظام وتنسيق الأحتفال، وتنظم الحضور، ولكن كانت جميع الأجراءات والمداولات تتم بصورة منظمة وعلى احسن ما يرام، ويتجلى في القائمين على الأحتفال نشاط وحماس لا عهد بهما للعاملين الرسميين في عامة الأحتفالات والمؤتمرات، الذين يرتدون ازياء خاصة وشهد الأحتفال سكان دهلي في عدد كبير.

وبعد انفضاض الأحتفال أبدى المفتي فضيلة الشيخ محمد كفاية الله (٦) - الذي حضر الأحتفال -

انطباعاته، فقال : «قد شهدت ـ ولا أزال ـ كل نوع من الاحتفالات والندوات والمؤتمرات الدينية والسياسية لكني ما شهدت حفلة كهذه الحفلة في سعادتها وبركتها وعظمتها».

وكان الاحتفال في الواقع زاوية اسلامية حية، كان معظم الحاضرين فيها رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار، عبادا في الليل، وخدمة بارين في النهار، وكان الجمع بين هذا وذاك من اهداف هذه الدعوة.

وكان الشيخ ـ بجانب جلسات هذا الاحتفال ـ يتحدث إلى الحاضرين في موضوعه قياما وقعودا، وبعد كل صلاة الجماعة، وكان يدعو مع الحاضرين بعد الصلوات دعاء الخاشع الخائف، المضطر، المستجير الذي ذلت رقبته لربه، وخضع له رأسه، وآمن به قلبه، ولا يقل هذا الدعاء من خطبة مستقلة، مؤثرة مرققة.

الجماعات التبليغية إلى الخارج :

وتوجهت الجماعات التي تكون من الميواتيين ، وتجار دهلي، وتلاميذ المدارس إلى الأنحاء المختلفة، وإلى مناطق الولاية الشمالية، ولاية «بنجاب» من «خورجه» وعلى جراه وآكره و «بلندشهر » و«ميرته» و«باني بت» و«سوني بت» و«كرنال» و«رهتك»، وتكررت الجولات في بعض الأمكنة، إذا اقتضت الضرورة، وتكونت فيها جماعات جديدة، وبدأ الناس يتوافدون من هذه المناطق إلى المقر الدعوي في نظام الدين بدهلي.

الجماعات الدعوية إلى «كراتشي» :

وتوسّع نطاق العمل مع الأيام، وتوجهت على دعوة من بعض المخلصين الذين تأثروا بالدعوة جماعتان إلى «كراتشي» الأولى في صفر سنة ١٣٦٢ هـ الموافق فبراير سنة ١٩٤١م، والثانية في اول ابريل، وجرى العمل في «كراتشي» و«السند» وقامت جماعات جديدة عديدة في احياء كراتشي.

وكان الشيخ يتمنى كثيرا أن يعم هذا العمل في المنطقة الساحلية، لانه كان يسكنها كثير من العرب وأناس من بلاد اخرى، فكان يريد أن تنبثّ دعوته عن طريق هؤلاء إلى هاتيك البلاد، ولا سيما البلاد العربية.

الرحلة إلى مدينة لكهنئو وزيارتها العوية:

كان طلاب دار العلوم ندوة العلماء، واساتذتها، يقومون بالعمل الدعوي في «لكهنئو» وما جاورها منذ عام ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠هـ ، عل طريق الشيخ محمد الياس، وحسب مبدئه وتوجيهاته، وكانوا يزورون الشيخ في مقره الدعوي بنظام في ايام العطلة وكثير من المناسبات، وكان الشيخ يحبهم كثيرا، وتوطدت علاقتهم معه، وكان الشيخ يتابع اخبار ما ينجزون من العمل الدعوي في رغبة وحرص، ويعطف عليهم بصورة خاصة.

ورضي الشيخ أن يزور لكهنئو على دعوة منهم في رجب سنة ١٣٦٢هـ، وحضر لكهنئو قبل قدوم

الشيخ جماعة الميواتيين وتجار دهلي الذين كان يتراوح عددهم بين ٣٠ أو ٤٠ شخصا، حتى تعمل على تهيئة القلوب والاذهان بالتجوال في احياء المدينة، حتى تكون زيارة الشيخ مثمرة نافعة، وموضع الاستفادة الكاملة، واقامت الجماعة في مبنى دار العلوم ندوة العلماء.

وكان برنامج الجماعة انها كانت تخرج كل يوم بعد صلاة العصر، إلى المدينة، وتقوم بالجولة بعد صلاة المغرب، في حي من احياء المدينة، وبعد صلاة العشاء في مسجده تتحدث عن مبادئها واهدافها في خطبة او خطبتين، ثم تعود بعد تكوين جماعة جديدة إلى المنزل، ثم تتناول العشاء، ويستمر ذلك إلى نحو الساعة الثانية عشرة ليلا.

ثم تشغل بعد صلاة الفجر بالتعليم ـ الذي كان أهم برامج الرحلات التبليغية ـ وتصرف بعض الوقت في التجويد وتصحيح مخارج الحروف، وتنفق بعض الوقت في تعليم الأحكام الدينية والحديث عن الفضائل، وبعض الوقت في الاستماع إلى احوال الصحابة واخبار جهادهم وبطولاتهم وتتمرن بعض الوقت على عرض اصول الدعوة ومبادئ التبليغ وتعليمها وتعلّمها، ثم يأتي وقت تناول الطعام والاستجمام، وصلاة الظهر، وبعد صلاة العصر تقوم بتحقيق برنامجها كالعادة.

وقد حضر الشيخ في ١٨ من يوليو سنة ١٩٤٠م، ويرافقه الحافظ فخر الدين، والشيخ احتشام الحسن والاستاذ محمد شفيع القريشي، والحاج نسيم، ودعا طويلا، في ميدان قبل جسر «موتى محل» في كل خشوع واخبات وانابة، وصلّى النفل.

ودخل دار العلوم ندوة العلماء، فبدأ بالمسجد، وقد كانت الجماعات فيه موزعة في حلق كثيرة، مشغولة بالدروس والاذكار، والذكر والتعليم، كل حلقة يراقبها اميرها، ومعلمها، ولم ينهض احد من مكانه، ولم يبرح وظيفته ليصافح الشيخ او يعانقه، او يستقبله، على الرغم من الحب العميق، والاحترام الذي كانوا يكنونه نحوه، ولم يزد هو على أنه ألقى عليهم نظرة العطف والحنان، وصافح اميرهم الشيخ مقبول حسن، وتوجّه إلى منزله.

وقد سبقه إلى دار العلوم «ندوة العلماء» العلامة السيد سليمان الندوي وكان نازلا معه في حجرة واحدة، وقد اتفق للعلامة أن يرافق الشيخ في القطار قبل ذلك بأيام، في طريقه من «تهانه بهون» إلى «كاندهله»، وتحدث معه، ثم ابدى انطباعاته عن دعوة الشيخ في حفلة في حارة «حبش خان» بدهلي، واستطاع أن يعايش احدهما الآخر طيلة أسبوع كامل أو أكثر.

وحضر في اليوم التالي الشيخ المُحدِّث مولانا محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ محمد منظور النعماني، والشيخ عبدالحق المدني، وبعض اساتذة مدرسة «مظاهر علوم» بسهارنفور.

وعقدت مجالسه بعد صلاة العصر ثلاثة ايام في قصر السريّ لشيخ نعيم الله، ويومين في منزل الشيخ اقبال علي المحامي، المعروف بقصر بهوفال (BHOPAL HOUSE) (٧) وتحدث إلى الحاضرين عن أهداف الدعوة، وعرّفها إليهم.

وبالاضافة إلى تلك المجالس كان يعرض الدعوة ومبادءها واغراضها، وحقائق الدين وأسراره على كل من يغشاه في مضيف دار العلوم، ويستمر ذلك إلى وقت الظهر، وبعد صلاة الظهر تعقد الحفلة فعلا في مسجد دار العلوم، وعلى ذلك فلا تفوته فرصة دون الحديث في الدعوة، وتعريف الحركة إلى الزوّار والحاضرين.

وزار ـ خلال اقامته بلكهنئو ـ الشيخ الجليل عبدالشكور (٨) رحمه الله في منزله، وعرّج في عودته على «فرنكي محل» (٩) ومكتب «هيئة التعليم الديني».

وكان اليوم الأخير ـ هو يوم الجمعة ـ مشغولا جدا، فلولا شرّف قاعة جمعية الأصلاح لطلبة دار العلوم، وشهد حفلتهم التي عقدوها بهذه المناسبة الكريمة، ثم توجه إلى كلية «أمير الدولة» الأسلامية، التي كان فيها اجتماع كبير، ينتظره بفارغ الصبر، وتحدث إلى هذا التجمع أولا العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله، وكان الحديث مؤثرا قويا جدا، واعقبه الشيخ فتحدث، وصلى في مسجد حي من احياء المدينة، الذي كان فيه العمل بعد الصلاة على تحريض الناس على مرافقة الجماعات الدهلوية الدعوية إلى «كانفور».

وتوجه بقطار الليل مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والحافظ فخر الدين ومع رفقة آخرين إلى «رائي بريلي» ليزور قرية الشيخ علم الله الحسني (١٠) رحمه الله المتوفي في ٩ ذي الحجة سنة ١٠٩٦هـ، ووصل القرية في الساعة الرابعة ليلا، واستمر مشغولا بوظيفته ـ رغم سهره في البارحة وكونه مجهودا، مكدورا، وألقى حديثا حول علاقة الدين بالسادة الأشراف، وعلاقتهم مع الدين، وكان الحديث حكيما ظريفا، رقيقا لبقا، وحرضهم للنهوض للعمل الأسلامي، واعتباره الوظيفة الأولى، وجعله الشغل الشاغل، والهمّ الوحيد، وقال: ان السادة لئن لم يقوموا بهذا العمل، لما يكون له ذلك الرقي الذي يمكن أن يتحقق بقيامهم لهذا العمل، ولو قعدوا عن العلم الأسلامي الدعوي لما حصل لهم الهدوء والقرار، الذي يحصل للمرء، إذا قام بوظيفته الأولى الأصيلة.

وعاد بقطار الظهيرة إلى لكهنئو، وتوجه من المحطة إلى كانفور، وأقام بها يومين، ثم رجع إلى دلهي.

---

(١) وقال الشيخ مرات : أن الشيخ داؤد ـ الذي كان يكون في اغلب الأحيان وسيطا بين سكان المدينة والميواتيين الدعاة ـ قد ضاقت نفسه يوما بعد ما انهالت عليه الشكاوى من أهل المدينة والميواتيين، وتألم قلبه، وبكى بكاءا طويلا، وكان الشيخ يقول : أن بكاؤه قد شق الطريق، وسهل العمل، وباركه.

(٢) المربي الكبير والمصلح العظيم سماحة الشيخ اشرف على التهانوي صاحب مؤلفات ورسائل يبلغ عددها إلى ثمان مائة مؤلف، بين كتاب ورسالة على الأقل، توفى إلى رحمة الله تعالى في ١٧ من رجب سنة ١٣٦٢هـ.

(٣) ابن اخت الشيخ اشرف علي التهانوي والعالم الجليل والمؤلف الكبير مولف كتاب «اعلاء السنن» تُوفّي في باكستان في ٢٣ من ذي القعدة ١٣٩٤هـ.

(٤) من رجال التربية العاملين، مدير الجامعة الملّية بدهلي، ومدير الجامعة الأسلامية بعليكراه بعد، ثم اختير واليا لولاية بهار، واخيرا كان رئيس الجمهورية الهندية، مات في ٣ مايو سنة ١٩٦٩م.

(٥) وكان مضيف الشيخ في بلدة «نوح» الشيخ الحاج عبدالغفور، كان ينزل دائما عليه، مع رفقته الكثيرين بمناسبة الأجتماعات ويقريهم الحاج عبدالغفور في سخاء نفس ورحابة صدر، وكان رحمه الله من خلفاء الشيخ الكبير الحاج امداد الله المهاجر إلى مكة المكرمة، انتقل إلى رحمة الله تعالى في ١١ رجب ١٣٦٠هـ.

(٦) من كبار علماء الهند ورجال الفتوى، ومن كبار القادة والزعماء المسلمين في حركة التحرير، كان رئيس جمعية العلماء في الهند مدة طويلة، توفى إلى رحمة الله تعالى في ١٣ من ربيع الثاني سنة: ١٣٧٢هـ.

(٧) كان منزل السري الفاضل الأمير نور الحسن خان بن المؤلف الكبير العلامة الأمير السيد صديق حسن خان أمير بهوفال.

(٨) المعروف بامام أهل السنة، وصاحب الأختصاص، والدور الأصلاحي الجدلي الكبير في الرد على الشيعة، واثبات عقدة أهل السنة، نفع الله به خلقا كثيرا، مات في ١٧ من ذي القعدة سنة ١٢٨١هـ.

(٩)حيّ معروف قديم، نبغ فيه علماء كثيرون، كحيّ «الميدان» في دمشق، ومنه انتشر المنهاج الدراسي المعروف بـ «درس نظامي».

(١٠) تقع القرية التي تعرف بدارة الشيخ علم الله الحسني خارج مدينة رائي بريلي على ساحل نهر «سئي»، وهي قرية صغيرة انشأها الشيخ علم الله، ولا يسكنها حتى الآن الا افراد اسرته وهو وطن السيد الأمام احمد بن عرفان الشهيد، الذي كان من سلالته، وهو وطن ومقر مؤلف الكتاب.

الباب السادس

مرض الوفاة والأيام الأخيرة من الحياة

الباب السادس

مرض الوفاة، والايام الأخيرة من الحياة

كان الشيخ محمد الياس ضعيفا، ضئيلا، نحيلا منذ البداية، وزاده ضعفا مواصلة الجهد، وملاحقة الأشغال، وقلة الأستجمام، اما ضعف الأمعاء، فقد توارثه من ابويه، لكن كثرة الرحلات والزيارات، واللقاءات، وما يتبعها من عدم الألتزام بالحمية وعدم الأحتياط في تناول الطعام والمنام، زاده انهيارا على انهيار، وفي نوفمبر سنة ١٩٤٣م اصيب بالاسهال الذي لازمه إلى آخر حياته، وكل من يريد من دهلي في هذه الايام، يقول: الشيخ لا يزال يشكو المرض، بل يزيد ضعفا ووهنا مع الايام، غير أن الامعان في العمل، والحماس لدعوته، والاقبال على وظيفته لا يفتر ولا ينقطع، وقد كتب احد الزملاء من دهلي في رسالته المؤرخة بـ ١٢ يناير سنة ١٩٤٤م، يقول:

«الحمد لله، إن الشيخ قد حصلت له الأفاقة إلى حد كبير، لكنه لا يكاد يسكت لسانه رغم وصية الطبيب الأكيدة في هذا الشأن، ويقول : اني أُفضّل أن أموت بجراء الكلام الدعوي على أن أسكت عن أمر الدعوة والتبليغ كي تعود صحتي، ويقول : ان السبب الأكبر في مرضي هو عدم اقبال العلماء على هذا العمل، ان على العلماء ان يقبلوا ويتفهموا الدعوة، ويتلقوا مبادئها وان اضطرهم ذلك إلى الأستدانة، ولا يهمهم ذلك ولا يضيقون بذلك ذرعا، فان الله يباركهم، وكنت أرجو أنهم سيحضرون لعيادتي وان مرضي يجذبهم، لكنهم لا يعيرون اهتماما بذلك، واني لأشاهد مظاهر الخير والبركة بأم عيني».

وتوجهت جماعة من عدد من المحبين والمخلصين من لكهنئو إلى دهلي في ٢١ محرم الحرام سنة ١٣٦٢هـ الموافق ١٧ يناير سنة ١٩٤٤م، وفيهم الشيخ محمد عمران خان الندوي الأزهري (١) عميد دار العلوم ندوة العلماء، آنذاك، فوجدوا الشيخ يشكو ضعفا أي ضعف، لكنه يمشي بنفسه يصلي بالناس في الأغلب، يواصل الخطب والحديث كالعادة، غير أنه لا يكاد ينهض من الجلوس الا بمساندة واشتد المرض وأذن بالخطر، وكان منصرفا في هذه الأيام إلى تقريب الدعوة إلى العلماء، وغرس قيمتها وعظمتها في قلوبهم، وكان ذلك يومئذ هو همه الوحيد، وكان يرى الحاجة أكيدة إلى ان يليه أولو الأحلام والنهي منهم، وأن يستمعوا إلى حديثه ويسيغوا دعوته ويتلقوا مبادئها واهدافها، ويتشربوا روحها ويثبتو القيام بها، وكان يهيب بالعلماء أن هذه الحركة لا تليق الا بهم وهم لا يليقون الا بها، وانها لا تنال امتدادا لائقا، ولا تجاوبا مشبعا، الا حين تيسر في اشرافهم وتتمتع بقيادتهم، وإنما مثلى مثل الذي رأى الحريق وقع في بيت فنادى في الناس أن أدركوا البيت واطفئوا الحريق.

وكان يؤكد على المُبلّغين من تجار دهلي ان يستفيدوا من العلماء، وأن يعقدوا في انحاء المدينة حفلات ولقاءات، ويستمعوا إلى كلماتهم، ويدعو الجماهير للاستفادة، ويقووا بذلك كله دعوتهم، ويدعموا حركتهم، ويكسبوا الأنصار والتجاوب، فعقدت عدة حفلات، تحدث إليها كبار العلماء والفضلاء والمثقفين، امثال المفتي الاكبر محمد كفاية الله، والشيخ محمد عمران خان الندوي، والشيخ عبدالمنان وغيرهم، وقد دعا

المفتي محمد كفاية الله دعوة حارة إلى مساندة الدعوة وتبنيها.

وكان في حنين إلى الأطلاع على مداولات واجراءات، ومنجزات هذه الحفلات، ولا ينام حتي يسمع اخبارها عن عدد من الناس ممن يثق فيهم، وكنا نرجع إلى نظام الدين بعد انفضاض الحفلات، ومضي معظم اجزاء الليل، ونجده ساهرا، فما ان سمع وقع اقدامنا حتى يطلبنا، ويسمع عنا مجريات الحفلات في لذة ولهفة، ونهامة وامعان.

ويتحدث في موضوع الدعوة بانتظام بعد تناول الشاي في الصباح وتناول العشاء في المساء وقد يجري الحديث إلى ساعات طويلة، مما يزيد في ضعفه، ويمنعنا التأدب أن نمنعه من الحديث.

وكانت في تلك الأيام رحلة تبليغية موفقة - في امارة الشيخ محمد يوسف ابن الشيخ محمد الياس - إلى «كهات ميكا» (GHAT MIKA) جمعت بين جميع مزايا وخصائص الحفلات في ميوات التي كان يشهدها الشيخ محمد الياس بنفسه.

الارتباط بالعلماء :

وكان من اعظم اهداف دعوة الشيخ محمد الياس ازالة ما نشأ بين فئات الأمة من التباعد وسوء الظن، والنفاق والشقاق، واحلال الحب والوئام والانسجام محل ذلك، حتى يكونوا جميعا كلمة واحدة، ويدا واحدة، في مصالح الدعوة الأسلامية وخدمة الأسلام والمسلمين، ويبذلوا تعاونا متبادلا في هذه السبيل، ويحترم بعضهم بعضا، ويثق بعضهم ببعض، حتى يتمكنوا من الأستفادة بالمحاسن والمواهب اينما وجدت.

وكان يريد أن لا يغض البصر في هذا الصدد حتى عن الطبقة التي حادت عن سواء الطريق، واصيبت في عقيدتها بشيء كثير من الأنحراف، وكم كان يتألم على الفجوة التي وقعت بين العلماء والشعب، وكان يرى ذلك شقاقا كبيرا للامة، وخطرا على مستقبل الرسالة ومصير الدعوة، ومنفذا إلى الألحاد واللادينية، وكان يأمل في ان المساهمة في الدعوة التي نهض بها ستكون عاملا في تقليل هذه الفجوة وبالتالي على ازالتها - وقد بدت مؤشرات ذلك - وتوجد فرصة التعارف والالتقاء والتلاحم فيما بين الشعب والعلماء، وإذا رأى كل منهما أنه في حاجة إلى الآخر.

قال كاتب هذه السطور في حديث ألقاه إلى علماء ميوات «كهات ميكا» على أمر من الشيخ محمد يوسف... «ان العلماء لابد ان يدركوا انهم لئن لم يتقاربوا إلى الجمهور عن طريق هذه الدعوة، ولم يدعموا علاقتهم معهم، فانهم ربما يعودون أقلية غريبة منبوذة في البلد، تصبح ثقافتها وآداب اجتماعها، غريبة على الجمهور، وقد تغدو افكارهم ولغتهم غريبة عليهم، ربما تعوز الحاجة - في بعض الأحيان - إلى ترجمان لا يمكن التفاهم الا بمعونته.....» وقد استحسن الشيخ هذه الفكرة - التي كانت مستمدة من احاديثه ومجالسه - عندما سمعها على لسان الشيخ محمد يوسف..

وإذا كان الشيخ يطلب إلى العلماء ان يتصلوا اتصالا قويا بالجمهور عن طريق هذه الدعوة، ويطلعوا

على معاناتهم ويتألموا على احوالهم، فانه في ناحية أخرى يوصي العوام أن يعرفوا العلماء قدرهم وقيمتهم، وأن يجالسوهم متأدبين ويستفيدوا منهم، ويدلهم على ما ينالونه على زيارتهم من اجر، ويعلمهم آداب زيارتهم ولقائهم، وآداب الأستفادة منهم، ويدربهم على احسان الظن بهم وتأويل ما لا يفهمون من حديثهم، ويبعثهم لزيارتهم والجلوس إليهم، ثم يسألهم بعد العودة، كيف جالسوهم، وكيف كان الحديث معهم، وعلى ذلك فلوجد بين العلماء والعوام من التقارب والتلاحم ما لم يشهده الناس منذ سنوات طويلة بعد حركة «الخلافة» الجبارة.

ومن سوء حظ المسلمين قد نشأ الأمتعاض والكراهية في قلوب العوام نحو العلماء، وذلك جراء الحركات السياسية، والخلافات المحلية، ونشأ في القلوب مع الأيام روح العناد والبغضاء نحو رجال الدين، والممثلين له دون استثناء.

وبفضل سعي الشيخ وحكمته العملية والدعوية، فقد تقلصت الفجوة فيما بين العلماء والعوام في مناطق نفوذ دعوته والدوائر التي تأثرت بها، وعاد الشعب يبعد الخلافات والخصامات السياسية عن الدين والدعوة والعقيدة، ووجدت في القلوب روح حفاوة العلماء، وحبهم واحترامهم رغم الخلافات السياسية، وعاد كبار التجار الذين كانوا يستوحشون من العلماء منذ مدة طويلة، يحضرون مجالسهم مدفوعين بالحب والادب، ويدعونهم إلى الحفلات التبليغية مع كل ثقة واكرام، وكان الشيخ في بداية مرض وفاته مصروف الهمة إلى هذا الجانب، وقد كسب في ذلك نجاحا موفقا.

العناية بمختلف جماعات المسلمين :

وقد نشأ التباعد والتحاسد فيما بين جماعات أهل السنة والجماعة، من اجل شيء قليل من الأختلاف في الآراء والافكار، وبحكم مجانبة بعضها لبعض منذ مدة، وصارت كل جماعة ترى بقاء دينها وعقيدتها في التحاشي عن غيرها، والفرار عن ظلها، فقام الجهل بالمُحاسن والفضائل، وعاد الكل لا يعرف ما عند غيره من مزايا ومنافع، فغدا طريق الأنتفاع والتعاون المتبادل مسدودا.

وما كان الناس يعرفون طريقا إلى القضاء على تلك الخلافات الا المناظرة والمناقشة، والرد على مذهب الآخرين، وتقرير مذهبهم وتعضيده بالدلائل والحجج، لكن التجربة أكدت أن ذلك يزيد الخلافات قوة، ويشتد منه الداء ويستفحل البلاء، فضلا عن القضاء عليها.

اما الطريق الناجع إلى ذلك عند الشيخ، فهو تقريبهم بالدعوة اللينة والحكمة، وحل العقد التي اخذت بحجز عقولهم، بلباقة دينية، وقدرة دعوية اسلامية، وخلق عظيم وسلوك مستقيم، وحسن الحفاوة والوفادة، لأن التعايش، وتجربة البعض البعض، وتدارس السلوك والعادات، يقضي على سوء الظن، ويحل عقدة القلب، والاشتغال بالوظيفة الدينية الأصيلة، والاختلاط والاحتكاك على مبترها يوجد الأعتدال، ويرفع التطرف.

وقد عني الشيخ في المرض الذي توفى فيه بهذه الناحية، عناية زائدة يعطي في ذلك توجيهاته

وارشاداته، وكان يستخدم من اجل كسب النجاح في هذا الصدد، ملاحظات دقيقة وتحفظات عجيبة، ووسائل قريبة وبعيدة، قد لا يستخدمها رجال السياسة فيما يهمهم من الأمور الدقيقة الحساسة.

اشتداد المرض :

واشتد المرض في مارس سنة ١٩٤٤م، وبلغ به الضعف إلى أنه لم يعد يستطيع أن يؤم الناس في الصلاة، لكنه كان يأتي المسجد يتهادى بين رجلين، ويؤدي الصلاة قائما، وقال مرارا: اعتقد اني لا أعافي من هذا المرض، وتدل المؤشرات على إنه ليس هناك رجاء في الصحة وتحسن الحالة، ولكن لست يائسا من رحمة الله، وكان يشكو ابناء الزمان والاصدقاء والخلان، انهم مشغولون بالفروع والاوراق، ولا يبالون بالجذور والاصول، ويهتمون بالقشور دون اللباب، وفي هذه الايام القى حديثين حكيمين، أشار فيهما إلى إنه ربما قد حانت الأيام الأخيرة، والله تعالى فيما يصنع حكيم عليم.

تردد العلماء للزيارة والعيادة :

اتصل الشيخ الحافظ هاشم جان المجددي (٢) بدعوة الشيخ وحركته عن طريق الجماعة الدعوية التي توجهت إلى السند، واعجب بشخصية صاحب الدعوة والحركة، فلما علم بمرضه، أراد ان يزوره في مقره بدهلي، فقدمها في شهر مارس سنة ١٩٤٤م، وقد تلقاه الشيخ بحسن الوفادة وبالغ الحفاوة، وعني بزيارته عناية كبيرة، وأبدى سروره العميق، لأنه كان قد سر سرورا كبيرا بمساهمة من كان يتمتع بمواهب خاصة في هذه الناحية ممن كان لسلفهم دور بارز في خدمة الاسلام ورفع شأنه ومكانه، ولا غرو فقد كان الشيخ هاشم من سلالة الأمام احمد بن عبدالاحد السرهندي الذي أدال من الجاهلية للاسلام.

وفي نفس الشهر زاره شقيق كاتب هذه السطور الأكبر الدكتور السيد عبدالعلي الحسني (٣)، فعانقه الشيخ مضطجعا، واهتم بقدومه كثيرا، وأبدى سرورا بالغا، وقال : إنه قد تحسنت حالتي إلى حد كبير منذ أن سمعت عن مقدمكم، وكان من عادة الشيخ أنه كان يتحسن حالته، ويخف مرضه، لئن علم بشيء يسره فيما يتعلق بدعوته، لأن السرور الروحي، والنشوة النفسية والاهتزاز القلبي، يزيد من نشاطه الجسماني، وكان من عادة الشيخ أنه كان يحول الزيارة الشخصية إلى الافادة والاستفادة للدعوة الأسلامية.

وتجمع مرة ـ على طلب من الشيخ ـ عمداء المدارس وعلماؤها، واستشارهم فيما عسى ان ينفع الدعوة ويخدمها في ناحية من النواحي، من بين هؤلاء العلماء، فضيلة الشيخ محمد طيب مدير جامعة دار العلوم بديوبند، والمفتي الأكبر محمد كفاية الله، والشيخ محمد شفيع عميد مدرسة «عبدالرب» بدهلي، والشيخ عبداللطيف عميد مدرسة «مظاهر علوم» بسهارنفور، والشيخ اعزاز على استاذ دار العلوم بديوبند، والشيخ المحدث محمد زكريا استاذ الحديث بمدرسة مظاهر علوم، وفي آخر شهر مارس انفضّ هذا التجمع العلمي النوراني.

الجماعة الدعوية الثالثة إلى «السند» :

توجهت جماعة تبليغية مكونة من ٦٠ الى ٧٠ شخصا إلى السند، في امارة الشيخ الحافظ مقبول حسن، وذلك في اوائل شهر ابريل سنة ١٩٤٤م، وكان المنزل الأول لهذه الجماعة في مدينة لاهور، حيث اقامت ليومين أو ثلاثة ايام، وقامت بالجولة الدعوية، ثم توجهت إلى «السند».

قدوم البعثة التبليغية من «بشاور» :

قررت جماعة من المخلصين والاخوان الذين كانوا قد تعرفوا على دعوة الشيخ، واتصلوا بها ان تزور الشيخ في دهلي في شهر ابريل، وارادت ان يسمح الشيخ بهذه الزيارة، فوجهت إليه رسالة قالت فيها ان حياتكم مفيدة للاسلام والمسلمين، فنرجو أن تدعو الله لعودة صحتكم بدوركم أيضا، فكان رد الشيخ على هذه الرسالة بما يلي :

«مرحبا بقدوم الجماعة في دهلي في شهر ابريل غير أني أرى من المناسب ان تعمل هذه الجماعة قبل قدومها إلى دهلي متقيدة بالمبادىء، في تلك النواحي وإذا فان قدومها إلى دهلي سيكون مفيدا جدا، اني اتضرع إلى الله ان يعيد صحتي شريطة ان يوفقني ان اقضي اوقاتي مع نظام وحسب المنهج العملي، ولا تضيع علي لحظة دون الفائدة كتلك التي تعيشها الآن... ١٤ مارس سنة ١٩٤٤م.

توجهت جماعة صغيرة من بشاور إلى دهلي في ٨ من ابريل بعدما واصلت الجولات والزيارات التبليغية، واقامت بدهلي في الفترة ما بين ١٠ ابريل إلى ١٤ ابريل، ومن بين الأخوة الذين كانوا في الجماعة الأستاذ أرشد (٤) والشيخ احسان الله التنوى، والاستاذ عبدالقدوس وطفلان.

جو نظام الدين والبرنامج العملي فيها :

وقد سجل الأستاذ ارشد بهذه المناسبة ما رأى وشاهد في المقر الدعوي في نظام الدين، نريد ان نثبت هنا منه ما يلقي الضوء على الوضع الديني، والجو الأيماني والقرآني في نظام الدين :

«جاء الينا طفل يقول : تفضلوا ان الطعام مهيأ، فدخلنا حجرة الشيخ في ناحية المسجد، فوجدنا المائدة ممدودة، والطعام منسقا، وكان الشيخ على السرير متغطيا بلحاف، مستندا إلى وسادة امامه طعام الحمية، تعلو وجهه اشراقة ايمانية، اما جسمه، فكان مجموعة عظام، وكان عند سريره طبيبه الذي يداويه، فسلمنا عليه، وجلسنا حول المائدة وكنا ٢٠ أو ٣٠ شخصا، تحدث الشيخ خلال تناول الطعام، وقال :

«(١) سيدي الطبيب اني أرى التقيد بوصيتكم واجبا شرعيا، أفما يكفيكم اني محروم من اجر القيام في الصلاة.

(٢) اخواني ! ان الله سبحانه وتعالى علاقة خاصة مع عباده، حتى الكافرين فضلا عن المؤمنين وتلك العلاقة هي التي جعلت القرآن يقول في شأن سيدنا يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فالتقمه

الحوت وهو مليم(*) وضغط الشيخ على كلمة «مليم» في الأداء، وإذا كان هذا شأن علاقة الرب مع الكافرين فكيف بالمؤمنين، واعلموا ان خدمة المؤمنين هي اصل العبودية، ان العبودية الحقيقية هي الفوز بعز الذل للمؤمنين، وذلك هو المبدأ الأهم الجذري لدعوتنا، وهو مبدأ سوف لا يتنكر له رجل اجتهاد (العالم) ورجل تقليد (رجل الشارع) أو المادي (الذي لا يهدف من كل عمل يقوم به في الحياة الا الحصول على المال والثروة، وحطام الدنيا) ثم توجه الشيخ إلى الاستكبار والرياء، وندد بهما، ثم انفض المجلس.

ثم خرج الشيخ وقت الظهر متهاديا بين رجلين، ومعتمدا على عصا، وجلس مستندا إلى المنبر وقال :

١ - ايها الأخوة ! اننا لم ننحرف عن طريق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل حدنا عنها كثيرا، ان الحكومة والسلطة السياسية ليس مما يهدف إليه المسلم، نعم! لو فزنا بها من خلال سلوكنا على درب النبي لما برحناه، غير أن ذلك ليس مما نجعله همّنا وموضع تفكيرنا، وإنما المقصود هو التضحية بالنفس والنفيس في طريق الدعوة الأسلامية.

٢ - واعلموا أن المساوئ التي تسربت إلى المسلم لا يمكن القضاء عليها بتشهيرها، والتنديد بها، وإنما الطريق إلى ذلك أن ننمي فيه جوانب الخير المنقية، ثم تزول المفاسد بنفسها.

ثم قامت الصلاة وأخذ الشيخ رجلان واقاماه بيديهما وقضينا من عجبنا حين رأينا شخصا يقوم في الصلاة باستقامة ويتم أربع ركعات في تمام الهدوء، ولا يقدر على ان يبرح مكانه دون معونة احد.

وتوجه الشيخ الينا بعد الصلاة قائلا : انكم ما أتيتم للاستجمام والراحة ولا تضيعوا اوقاتكم، اشغلوها بالذكر والتعليم، انكم اتيتم لمدة قليلة جدا، انها لا تكفي، ثم قال في الحاح : لا بد أن تحضروا للمرة الثانية لوقت أطول، وبجماعة كبيرة العدد، انكم في حاجة إلى اقامة طويلة ههنا.

توجه بعد الصلاة إلى حجرته معتمدا على رجلين، ووزع الحاضرون بين طائفتين، طائفة مثقفة بالثقافة العربية، اما الطائفة الأولى فتليت عليهم أحاديث من كتاب الأيمان، وكانت المذاكرة حولها، والطائفة الثانية، فقرئت عليهم كتب أردية في التعليم والتربية، وعلمنا فيما بعد أن تلك المقررات الدراسية والتعليمية لابد ان يتمها كل الحاضرين في المقر الدعوي.

وتوجهت جماعة «بشاور» في الليل إلى «بهاركنج» - حي من احياء مدينة دهلي - وقامت بالجولات الدعوية، وقضت الليل هناك.

وكانت قبل الظهيرة مذاكرة الحديث النبوي، وكانت لذيذة مثيرة، وكان الشيخ نشيطا عند تناول الشاي، وقال يخاطبني : يا أخي لابد أن توفد جماعة وفيرة العدد، ان عملا تافها من الأعمال الدنيوية لا يمكن القيام به دون تعلمه حتى السرقة، لابد أن يتعلمها المرء على استاذ، ولو راح يقوم بعملية السرقة بدون أن يتعلمها، لوقع فريسة القبض، واخذ على غرة، فكيف بعمل في غاية الدقة والاهمية كالتبليغ، ثم قال في حنان: أفلا توفد الجماعة؟ فقلت: يا سيدي لو ذهبت جماعة من دهلي إلى «بشاور» وعملت بها،

* سورة الصافات

لاقبل الناس على هذه الدعوة في يسر وسهولة.

فقال : اكتبوا إلى فلان وفلان أن يأتي بالجماعة إلى مدينتكم،، وظل الشيخ مشغولا ذلك اليوم بعد الظهر في تكوين الجماعات، وايفادها، وتقديم توجيهات وارشادات مما يهمها.

وبعد صلاة الظهر كانت مذاكرة الحديث، الحبيبة الأثيرة، وتلا علينا الأستاذ واصف احاديث من كتاب الجهاد.

وخرجت الجماعة الدعوية في الساعة الخامسة مساء كالعادة، لتقوم بالجولات الدعوية.

في ١٣ ابريل سنة ١٩٤٤م، تحدث الشيخ فقال : ان سيدنا النبي الأعظم قد جاء بشريعة كما جاء آخرون من الأنبياء بشريعة، وان انجيل سيدنا عيسى لم ينسخ التوراة، وإنما عدّل في احكامها، ولكن القرآن الذي نزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام نسخ جميع الكتب، وان اتباعها اليوم مباشرة لا يجوز،. والشيء الذي يمتاز به سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم هو اسلوب التبليغ وطريق عرض الدعوة، ان الأنبياء الآخرين بعثوا وسلسلة النبوة متتابعة، وبعثة الأنبياء لم تتوقف فلم يحتاجوا إلى تلك العناية التي لازمها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بحكم انتهاء سلسلة النبوة بعده، وتحمل أمته بعده القيام بمسئولية الدعوة والتبليغ، فكان يبعث اصحابه جماعات لتعليم احكام الدين، ونحن بأمس الحاجة اليوم، إلى أن نحيي هذا الطريق للدعوة والتبليغ.

«ثم القى الشيخ ضوءا على مسألة «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق(*)، وقال : لابد أن نضع ذلك في الأعتبار في المعاملات، والعلاقات الدنيوية، حتى العلاقة مع الوالدين، والمرشد والمربي، والاستاذ.

والتفت إلى الأستاذ احسان الله الندوي (١)، وقال: لابد أن تعلم - ايها الأستاذ - أن هذا العمل جوهر من جواهر القرن الأول، ولابد أن تضحوا في سبيل ذلك انفسكم واموالكم، وستنالون بقدر التضحية، وتجدون بقدر الأنفاق، ان هذه القصص والاحاديث التي تسمعونها كمثل الذي ينظر إلى الفواكه في بستان غيره، وإنما السرور الحقيقي أن يثمر بستانك، وأن توجد الفواكه في حديقتك أنت، وذلك ما لا يحصل بدون الأجتهاد والتضحية.

وأمطرت السماء وقت العصر مطرا غزيرا، ، وأجّل الأصدقاء برنامج الجولة اليوم، ولكن الشيخ خرج وقت العصر من حجرته، وابدى كراهيته لهذا التأجيل، وتحدث عن مجهودات الميواتيين في سبيل التبليغ، وقال ان الميواتيين محسنون اليكم، حيث دلوكم على الطريق الصحيح، ثم دعا ميواتيا في غاية السذاجة، وادنى مجلسه، وقال: لما قلت لهذا المرة الأولى: رح وقم بعمل التبليغ، فقال - بصوت منكسر - : اني لا أدري ما هو «التبليغ» فقلت : اذهب وعلّم الناس الكلمة، فقال: اني لا اعرف الكلمة فكيف اعلمها الآخرين، فقلت له: اذهب إلى الناس، وقل لهم: ايها الأخوة انظروا اليّ قد بلغت إلى هذه السن من عمري، وما

* حديث شريف وقاعدة أصولية تنصح بأن الطاعة واجبة من الصغير للكبير ومن الابن تجاه أبيه ووالديه والاكبر الا اذا كانت لمعصية الله فساعتها لا تجوز الطاعة تحت قاعدة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

عرفت الكلمة لأني ما تعلمتها من أحد، اخواني اوصيكم ان تتعلموا الكلمة من أحد، ولا يكونن مصيركم مصيري.

وقد فعل حديثه فعله في القلوب، وخرجت الجماعة بعد صلاة العصر فورا، وكان من فضل الله ان توقف المطر مع خروجنا، وتلطف الجو، وقصدنا قرية على بعد نصف ميل، وقمنا بعمل التبليغ حتى المغرب ثم صلينا المغرب وعدنا.

يتجمّع في المقر الدعوي ليلة الخميس خيرة الناس من مدينة دهلي، وكان التجمع حاشدا، والمجلس مشهودا، رغم نزول المطر في النهار.

ووجدنا معظم الحاضرين مشغولين بالذكر والتهليل والتسبيح وقت السحر وصلى بالناس الفجر مرافقنا الشيخ احسان الله على أمر من الشيخ، وكان في مجلس الشاي ٥٠ أو ٦٠ شخصا، وتحدث الشيخ، فقال :

١ ـ ان لتلاوة سورة قصيرة كالفاتحة في الصلاة اجرا، ليس لتلاوة كل القرآن خارج الصلاة، اما الجماعة التي تدعو الناس إلى الصلاة فلا يستطيع احد ان يقدر ما لها من اجر جزيل عند الله؟ وكل عمل له تأثيره في أوانه ومكانه، وكذلك للذكر خلال الجهاد (محاولة نشر الدين) من الأجر ما ليس له قابع في الزوايا، أو ناحية البيت، فاكثروا من الذكر.

٢ ـ ان هذه الحركة ليست الا عبارة عن العمل بقوله تعالى «انفروا خفافا وثقالا»(١)، ولابد من التقيد بالمبادىء في هذه الدعوة.

٣ ـ ان الشيطان يقيم حواجز من نوعين امامنا : «حواجز الظلمة» أعني أنه يغري النفس بالشهوات والاهواء، ويقدمها إليها حلوة لذيذة، فتهفو إليها، و«حواجز النور» أعني إنه يصرف الأنسان من عمل مهم إلى غير المهم، فيشغل بالنوافل وقت الفرائض، وترضى النفس أنها مشغولة بالخير، وكذلك يصرف المرء من مسئولية الحاضر إلى مسئولية المستقبل، وان مسئولية الحاضر الكبرى هو التبليغ، وان التقصير فيه لا يعوض بعبادة اخرى مهما كانت جليلة.

وتقرر أن ترتحل جماعة بشاور مع جماعة دهلي إلى سهارنفور، للقيام بالجولات التبليغية، وذلك غدا وقت الصباح وذهبنا إلى الشيخ تستأذنه للرحلة ونسلم عليه، فقال: لماذا ما جئت بالاطفال؟ قلنا: انهم لا يفهمون الدعوة والتبليغ، فقال: انكم عاجزون عن تفهيمهم ذلك، ولكنكم تحملونهم المسئولية، ولا حاجة إلى الفهم والاساغة، وإنما الحاجة إلى ان يسمعوا ذلك بآذانهم ، ويروه بعيونهم، ويشعروا به بقلوبهم، وذلك هو المقصود من الإذان في اذن المولود حين الولادة..

ثم اكد علينا بملازمة الذكر وقال: ان الذكر كالحصن الحصين، تتقون به غائلة الشيطان، ومعركة كيده: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»(*).(٢).

* سورة الرعد

وظل يتحدث عن فضائل الذكر إلى ان ارتحلنا...» (٦).

الانهماك في أمر الدعوة والتبليغ :

ونريد أن نسرد هنا قصصا ـ كما رواها فضيلة الشيخ محمد منظور النعماني مدير مجلة: «الفرقان» الشهرية ـ تدل على مدى انهماكه في أمر الدعوة والانقطاع إلى التبليغ، رغم اشتداد المرض، وتهدّم جسمه، وانهيار صحته كليا.

زاره في أواخر شهر ابريل الشيخ السيد عطاء الله البخاري (٧)، وكانت للمرض نوبتان شديدتان عليه، زادتاه تهدما وضنى، وصار لا يستطيع ان يتكلم عدة دقائق، ولما علم بقدوم السيد عطاء الله طلبني وقال: اني بأمس حاجة إلى الحديث معه، ولكن بطريقة هي ان تدني سمعك إلى فمي، وتنقل إليه ما أقول لك، على كل فطلب الشيخ عطاء الله إلى داخل الحجرة، وبدأ الحديث معه على هذا النحو، وما ان مضت دقائق حتى دب فيه دبيب القوة والنشاط، وخاطبه مباشرة واستمر يتحدث معه إلى نحو نصف ساعة.

وفي نفس هذا الشهر ألمت به نوبة شديدة، واغفاءة طويلة استمرت إلى نحو ساعتين حتى انطبقت اجفانه، واعتقلَ لسانه، وفتح عينه بعد وقت طويل، وهو يقول: «الحق يعلو، الحق يعلو»، «الحق يعلو ولا يعلى عليه»، ثم ملكته نشوة عجيبة وبدأ يتغنى ثلاث مرات بالآية من قوله تعالى: «وكان حقا علينا نصر المؤمنين..»، ورفع صوته بالتلاوة وكنت في المسجد، فأتيت إلى باب حجرته جريا، وهو يسأل الحاضرين حوله عنّي، أين هو، فدخلت عليه، فقال:

«يا استاذ.. ان الله قد وعد باتمام هذا العمل وسيكون نصر الله حليف العاملين إلى نهاية المطاف، ولكن الشرط أن تطلبوا منه العون والنصر على ايمان كامل بوعده بالنصر، ولا يكونن منكم تقصير فيما يسعكم من بذل المجهود».

وما ان أتم هذه الكلمات حتى انطبقت عيناه، وبعد امعان عميق في السكوت، قال: «يا ليت العلماء قد تبنوا هذا العمل، ثم ارتحلنا نحن».

«ومما يدهش أنه بقدر ما كان يزداد انهيارا وضعفا، يزداد رغبة في احياء الدين، وحماسا للدعوة، وعاطفة لاعلاء كلمة الله، وعاش الشيخ شهورا طويلة في حالة من الضعف والهرم لا تسمع للشجعان الأبطال الا بان يستجموا واجمين صامتين، لكنه لم يره الناس طول تلك المدة الا في ثلاثة احوال:

١ ـ اما وهو غارق في التفكير في صالح هذا العمل، أو يتضرع له إلى الله تضرع المتكسر القلب ويطلب من ربه ـ للعاملين ـ الأخلاص والثبات والاستقامة والتوفيق لاتباع الطريق النبوي والالتزام للمبادىء التي ترضى الله ورسوله، ولهم ولنفسه الأستجابة والرضا والقبول بقلق واحتراق قد يبكي الحاضرين،

٢ ـ أو يعطي الأحكام والتوجيهات في هذا الصدد.

حتي ان الطبيب الذي يزوره لاستطلاع حاله يعرض عليه أولا دعوته، ثم يفسح له المجال للكشف والاستطلاع، وقد أحضر يوما ـ المفتي محمد كفاية الله (رحمه الله) طبيبا شهيرا بدهلي، فتعرض له في هذا الأسلوب اللبق الظريف.

سيدي الطبيب ان لديك علما يستفيد منه الخلق، لكنه فنّ من الفنون، بعث الله سبحانه سيدنا عيسى عليه السلام لكي يبهره بمعجزات (كاعادة البصر إلى الأعمى وصحة الجسم إلى المجذوم، واحياء الموتى) واعتقد أنه لا يخفى عليكم ان العلوم الروحية التي اكرم بها سيدنا عيسى كانت تفوق هذه المعجزات الظاهرة مرات عديدة ودرجات كثيرة، لكن العلوم الروحية والاحكام الألهية التي بُعث بها سيدنا خاتم الانبياء وسيد الرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قد نسخت علومه الروحية والشريعة التي جاء بها وجعلها كاسدة لا تغني غناءا مما تستطيعون ان تقدروا منه مدى الخسران الذي يلاحق المعرضين عنها، وان رجائي من الناس أن يستغلوا هذه النعمة ويعرفوا قدرها والا فانهم في خسارة أي خسارة.

وما كان يسمع شيئا لا يتصل بهذا الموضوع فضلا عن الحديث فيه ولو تعرض احد من الحاضرين والواردين بشيء آخر، لما تحمله ومنعه فورا، ولو استطلعه احد من الخدم حاله، قال: ان الصحة والمرض يلازمان المرء، وهو يتقلب بينهما فما معنى السلامة والعافية، او عدم ذلك في هذا الشأن؟ إنما السلامة والعافية ان نؤدي الوظيفة التي من اجلها خلقنا، حتى ترتاح روح النبي صلى الله عليه وآله وسلم (٨)».

واتاه عدد من اقربائه من قريته: «كاندهله» يزورونه ويعودونه، فقال لهم: ما الذي اقدمكم؟ فقالوا: لنعودكم، فنطلع على احوالكم، فقال: يا للعجب جئتم من «كاندهله» لتطلعوا على احوال من خلق للفناء، ولكنكم لا تدركون دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعث ليبقى حيا خالدا، وتتوجه الضربات للقضاء عليه، ولا تتداركونه (٩).

وقد ألقى كاتب هذه السطور والشيخ محمد منظور النعماني بعد صلاة فجر احد ايام الجمع ـ حديثا موجزا، ورقت قلوب الحاضرين، واغرورقت عيونهم بالدمع حينما تذكروا ان هذا الموقف كان يقفه الشيخ محمد الياس، ويتحدث إليهم، وعيل صبرهم حينما اشار الخطيب إلى المكان قائلا: ابقى الله هذا المنبر والمحراب معمورين بالمصلين والدعاة والركع السجود.

وكان من عادة الشيخ أنه يتحدث إلى الناس ليالي الجمع بانتظام، وكان الناس يحتشدون هذه الليالي بصورة خاصة من مختلف احياء المدينة وارجائها، وقد يتوافدون من خارج المدينة، وزادت نسبة الحضور في ايام المرض، الذي توفي فيه، وكان لا يقدر على الحديث بنفسه، ولكنه ما كان يرضى ان يعودوا مجردين كما جاءوا، ويكون مقدمهم لزيارة شخصية وحدها تاركين راحتهم ووظائفهم ويرجعوا إلى بيوتهم بعد القاء التحية والمصافحة، وغمز الرجلين واليدين، وكان يرى خيانة اي خيانة ان يوضع حبهم في الله، في غير موضعه، او يترك وشأنه، يضيع هدرا، فكان يهفو إلى ان يشغلهم بوظيفة دينية، وتعرض عليهم تلك الدعوة الدينية التي انطلقت من فوق هذا المنبر والمحراب وما كان يتحمل تأجيلا في ذلك.

جمع الناس في احدى ليالي الجمعة على سقف المسجد، وأمرني الشيخ بالحديث إليهم، وتأخر الحديث لبعض أسباب ـ دقائق ـ فتتابع رسله يقولون: ان الشيخ يأمر بالبدء في الحديث دون أي تأجيل، فان كل دقيقة تمضي عليه كانت ثقيلة أي ثقل، ولم يهدأ الا حين اخبر بأن الخطبة المأثورة ـ التي تفتح بها الخطب الدينية ـ تتلى.

الشهر الأخير :

وازدادت صحته انحرافا، وقوته انهيارا، وجسمه تحطما، فلم يعد يستطيع الصلاة قائما، فكان يوضع سريره في جانب الصف، ويصلي مع الجماعة.

وكان الشيخ ظفر احمد التهانوي مقيما في هذه الأيام بنظام الدين، يشرف على معالجة الشيخ ويلقى الأحاديث في الأجتماعات والحفلات في اغلب الأحيان، وكان الشيخ مسرورا ومرتاحا باقامته.

وفي ٢٨ من جمادي الآخرة ـ ٢١ يوليو قدم الشيخ محمد زكريا، وذلك بمناسبة عقد الحفلة السنوية في مدرسة «معين الاسلام» بـ «نوح»، وفي ٣٠ جمادي الآخرة سنة ١٣٦٣هـ ـ ٢٣ يونيو سنة ١٩٤٤م ـ وكانت الحفلة الأولى التي لم يشهدها الشيخ.

وفي صباح ٢٣ يونيو، ارتحلت جماعة الخطباء والمبلغين والمسئولين من نظام الدين إلى «نوح» من بينهم مولانا محمد يوسف بن محمد الياس امير الجماعة يومئذ، والشيخ ظفر احمد، والشيخ محمد منظور النعماني، وغيرهم من رفقة جماعة (لكهنئو)، وقطعوا الطريق في الذكر والتذكر، والمذاكرة العلمية، ووصلنا إلى «نوح» في نحو الساعة الثانية، وافتتحت الحفلة مباشرة، وكانت غراس الشيخ امامنا مزهرة، مثمرة خضراء، نضرة، اما البستاني، الذي غرسها بيديه، وسقاها بدمه وعرقه ودموعه، فلم يكن موجودا.

وبدأت الجلسة في الليل وفوجيء الحاضرون خلال استماعهم إلى الحفلة بوقوع حريق في رواق مدرسة انجليزية ثانوية في «نوح»، وما تغلبوا على المشكلة الا بعد ما استنفدت جهودهم الطويلة، وشغلوا به طويلا عن الحفلة، وتضرر جزء كبير من البناء.

وليلة رأينا ناحية المسجد ـ التي كان يعمرها الشيخ، ويكون فيها سريره، ويتساقط فيها الميواتيون عليه تساقط الفراش على النور ـ مقفرة، وكان الجو حرا في الأيام الأخيرة من شهر يونيو الحار، ولكن جو «نوح» كان «باردا» ولم تكن القلوب تشعر بتلك الحرارة التي كان يشعر بها عندما تستمع إلى احاديث الشيخ، وتشهد مجلس دعاء الشيخ بعد الصلوات في اضطرار، وابتهال، وانابة تامة، ينسى فيها نفسه، وتسود روح القلق والاضطراب، والتوجع التي كانت ميزته وتزداد في أيام نزوله بـ «نوح».

وبعد العودة من «نوح» استمع الشيخ إلى اجراءات الحفلة، ولما علم بوقوع الحريق، قال: انكم قصرتم في التذكر، فوجد الشياطين فرصة ايقاع الشر.

وكان يشعر شعورا قويا بأنه على وشك الارتحال، ويقرب موعد غروب شمس الحياة، وقد يبدي عن

شعوره هذا بالحث على زيادة مجهودات العاملين.

وجاءه الشيخ ظفر احمد يستأذنه للعودة، فقال له: كنت وعدتني بمنح أوقاتك للانشغال بالدعوة، وما وفيت بالوعد حتى اليوم، فقال: يا سيدي انها ايام حر شديد، وسأحضر في عطلة رمضان المبارك - ان شاء الله - وأصرف في ذلك وقتا لا بأس به، فقال: اني لا ارجو أن ادرك شعبان فضلا عن رمضان، فقرر الشيخ ظفر احمد توسيع مدة اقامته، وحل عزمه على العودة.

فقال لأحد من الحاضرين: قد قرب موعد الفراق، ولم يبق الا عشرون يوما، وقد كان، فلم تمض العشرون يوما التي قالها حتى لحق بربه، رحمه الله.

وقال لكاتب هذه السطور أيضا مرات عديدة : اني لا ارجو الصحة من هذا المرض، ولكن الله فعال لما يريد، وهو على كل شيء قدير.

عدم ارتياحه إلى العلاقة الشخصية المحضة :

وكان يغضب كثيرا إن تفرس من احد إنه لا يحب الا شخصيته، وليس له الا علاقة شخصية معه، ويقول: إنما الأصل ان تكون العلاقة مع الدين، وما كان يقبل خدمة من كان يكتفي بخدمة شخصه دون دعوته، ويحبه دون حركته، فقد جلس يوما عنده ميواتي، ووضع الدهن على رأسه، بعد دقائق عرف الشيخ إنه الشخص الذي لم يسهم ولا مرة واحدة في عمله الدعوي، فقال: اليك عني، فانك ما ساهمت مرة ما في العمل الدعوي.

وكان هناك رجل عجوز، معجبا بالشيخ اعجابا كبيرا، يحبه من اعماق قلبه، جاء يزوره يوما، فقال للشيخ محمد منظور النعماني: إنه يحب شخصي حبا لا مزيد عليه، ولكنه لم ينزل عند وصيتي يوما، ولم يقبل دعوتي، فأخل به انت، وقل له ان يسهم في ذلك، وأما بدون ذلك فان قلبي يتأذى ويتضايق صدري، فخلا به الشيخ محمد منظور النعماني، وفاوضه، فقال جئت عازما على الدخول في العمل، فهرول إلى الشيخ، وأبلغه الخبر، فتهلل وجهه وقبّل يديه.

امتداد الدعوة في المناطق النائية :

كانت ترد الرسائل من المناطق الأخرى البعيدة، تبشر بانتشار الدعوة، وتوفر السهولة للعمل في الأمكنة التي كانت صماء بكماء، وانه انبعث النشاط والحماس في كثير من المواطن وبذرت بذرة العمل في تلك الأيام في بعض المناطق الجديدة، في «بهوفال» و«جي بور» و«مراد آباد» وغيرها.

النشاط الدعوي :

وكلما قرب اليوم المحتوم، يزداد احتراقا للدعوة، وحماسا لها، ولا يرضى أن يرى او يسمع شيئا لا يتصل بهذا الموضوع الأم، وكان - على الرغم من الانهيار الكلي - يشرف على جميع النشاطات وهورهين

الفراش، ويطلب أولي الأحلام والنهي مرات عديدة في اليوم، ويعهد إليهم بتوجيهات ووصايا، ونداءات إلى الناس، وكان يراقب دائما ان ينصرف احد لحظة في حلق الدرس والذكر والتعليم او مجالس الوعظ او على موائد الطعام، إلى شيء سوى الدعوة والتبليغ، ويوصي دائما بالامعان في الذكر والتعلم، والتبليغ، ولا يستخدم الزجر والملامة، وإنما يوجه إلى الموضوع بالترغيب والكناية الحكيمة، والاشرة اللطيفة، وقد يتحدث عن الأجر والفضيلة التي يحوزها المرء على هذا العمل، حتى تميل النفس، ويرغب القلب، وتتحرك الأرادة.

وكان ينتظر بفارغ الصبر ان يستمع إلى مداولات الحفلات، وكانت هناك حفلة في المدينة، ولم يتمكن المسئولون ان يصلوا إلى نظام الدين في الليل، لأنهم لم يجدوا مركبا، فسأل عنهم مرات، وما ان وصلوا في الصباح حتى استسمعهم جميع التفاصيل بفصها ونصها.

وحدث مرة ان تعرض الناس في حفلة الدرس والتعلم لموضوع تاريخي، «افاضوا في الانتقاد على السلاطين المسلمين في تقصيرهم في دعوة غير المسلمين الى الاسلام وتوجيه ذلك لهم، وبذل الجهود في ذلك، ولم ندر كيف بلغ ذلك الشيخ حتى وجه رسولا يأمرهم بأن يغيروا الموضوع.

وكان يوصي فيما يتعلق بالخطب والاحاديث الدينية ان تكون على مستوى «ما قل ودل» وان تفوق الكيفية الكمية، وتمثل الكيفية التي كانت روح خطب النبي «كأنه منذر جيش، يقول: صبّحكم ومسّاكم».

وما كان يرضى ان تكون الخطب والمواعظ محتوية على القصص والامثال والنكت، والابيات، وان يستخدم الخطيب التنويع والاطالة، والتفصيل في الحديث، وكان يقول: اني لا اريد الاكثار من الخطب، لأن المدارس والحفلات تموج بها من هناك، كان المرضون يحاولون أن لا يبلغه صوت الخطيب، حتى يتم حديثه، ولا يتأذى الشيخ.

وكان هناك تجمع كبير في نظام الدين في صباح احدى الجمع، وانتدب كاتب هذه السطور للحديث، فبدأ الحديث على اسلوبه المتبع لدى الخطباء، وبنوع الخطاب، وفصّل الكلام، وان مضت ساعة حتى صدر أمر الشيخ بأن اوجز الحديث، وأتى على اصل الموضوع.

ويتجمع الناس بعد العصر، وكان الشيخ يبعث نداء إلى الحاضرين، يعرض عليهم، واشتدت به الحمى يومئذ، فلم يأمر بشيء، واشار اليّ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ان اتحدث إلى الحاضرين، ولكني كنت خائفا مما حدث في الصباح، ولما أفاق سأل الحاضرين: لماذا لم يكن الحديث اليوم، ولماذا أضيع الوقت هدرا؟ فقيل: يا سيدي انكم ما أمرتم اليوم بشيء، فقال: لماذا لم تسألوني، قيل: كنتم في حمى شديدة، فقال: لماذا آثرتموني على الدين، ولماذا لاحظتم عدم ازعاجي؟

وكنت يومئذ متضايقا، صليت المغرب دون لذة وسرور، تساورني الأفكار، وتزاحمني الوساوس وجمد نشاطي، وما ان سلمت، وانتهيت من الصلاة، حتى طلبني، فوضع يده على رأسي في حنان الأم، وعطف الأب، وقال: لماذا اسقطت « همتك وفتر نشاطك؟.. تجلد ، وكن قوى الأمل، بعيد الهمة.

الامور التي كان يعني بها عناية خاصة في آخر أيامه :

وهناك امور كان يبذل عليها من العناية ما لم يبذله عبر حياته، التحريض على الأشتغال بالعلم والذكر، مخافة أن لا تعود هذه الدعوة، جسدا بلا روح، وخطا بلا وضوح، ومجموعة من القواعد والاشكال الفارغة، كالحركات المعاصرة الكثيرة، وكان خائفا حذرا من ذلك، يحذر من هذا المصير المشئوم تحذيرا ولا تحذير بعده، فكان يقول دائما دائما، وعلى لسان اخوته وزملائه ان العلم والذكر هما عجلتا هذه الحركة، لا يمكن ان تندفع إلى الأمام خطوة بدونهما، وجناحان لا يمكنها ان تحلق بغيرهما، والعلم والذكر كل منهما يلازم احدهما الآخر، وكل منهما في حاجة إلى آخر، فان العلم بدون الذكر ظلمه وضلال، والذكر بدون العلم فتنة وفساد، وهذه الحركة بدونهما مادية خالصة.

والترحم والتوجع على الطبقة المتخلفة من المسلمين دينا وعلما وخلقا، ومن اجل القيام بعملية التبليغ والتعليم فيهم اقام كُتّابا على جانب من الشارع بجوار المسجد، وكُتّابا آخر (١٠) على مفترق الطرق، ووفر الطرق، ووفر فيهما الشيشات، التي كان يدفنها أهالي تلك المنطقة، وامر جماعة من الميواتيين ومبلغي مدينة دهلي ان يجلسوا فيهما، ويجذبوا المارة من المسلمين في عطف وشفقة، ويكرموهم بالشيشة وما إليها، ويطلبوا إليهم بحكمة دعوية، ان يسمعوهم كلمتهم، ويحرضوهم على تعلم الدين وتشرُّب الأيمان ويوصوهم بالخير والصلاح، وكان الشيخ يهتم بهذا الأمر اهتماما كبيرا، ويسأل عن ذلك دائما، ويؤكد على توفير الشيشات وما إليها، ويذكر ما في هذه الحكمة الدعوية من اجر وثواب عند الله الكريم، وكانت الأيام هي الأيام التي يزورفيها جماهير المسلمين الجهلة، ضريح الشيخ الكبير معين الدين الجشتي (٢) رحمه الله، في اجمير ويعرّجون في العودة على دهلي ويزورون ضريح «نظام الدين اولياء» (٣) وغيرهم من الصالحين في دهلي، وضريح نظام الدين يقع بجوار المقر الدعوي، وكان هؤلاء الزوار، يتوقفون في الطريق إلى الضريح، يستجمون تحت الأشجار الوارفة الظلال، وينفضون متاعب الرحلة عن نفوسهم، ويصيبون من الشيشة، ويرضون حاجتهم إلى الشراب البارد العذب، فيستلقتهم المبلغون، وينتهزون هذه الفرصة التي اتاحها الله لهم، ويعرضون عليهم رسالتهم في لين وعطف، وحب، وعلى ذلك فاستطاعوا ان يعرضوا الدين على مئات من المسلمين ويبذروا بذرة الأيمان واليقين في قلوبهم، والله هو الذي يعلم كم من عباده الحائدين عن الطريق المستقيم اهتدوا إليه عن هذا الطريق.

والعناية بتعليم الطريق الشرعي الصحيح للانفاق في سبيل الله، واداء الزكاة، فلم يتمكن الشيخ من العناية اللائقة بهذا الجانب في حياته، كما عُني به في هذه الأيام، كان يتوافد التجار والاثرياء في عدد كبير فكان الشيخ يكرر بيان هذا المعنى بلسانه وبلسان غيره من الزملاء، يقول: لابد ان يهتم المرء باداء الزكاة من امواله، اهتمامه بالعبادة، وان يبحث عن مستحقيها بنفسه، وأن يكون هو المدين بأدائه، وقد ألقيَ الشيخ ظفر احمد التهانوي احاديث في هذا الموضوع.

وكذلك الأهتمام بالبريد، فقد كان يأمر بتلاوة ما ورد منه في السماء وقت الصباح على الحاضرين، إذا كان يتعلق بالدعوة والتبليغ، وأن يجري التشاور معهم فيما يتعلق بالرد على هاتيك الرسائل، ويعرض

عليهم ما يشتمل عليه الرسائل، من القضايا والاحوال، ويستوحي لهم الحل والرد، وقبل تلاوة الرسائل عليهم، يلقي إليهم حديثا عن غرض العرض، وانه إنما تعرض عليهم حتى يتعودرا على التفكير في القضايا الدينية وان يصرفوا قواهم الفكرية ـ التي لا عهد لها حتى الآن الا بالامور الدنيوية والشئون المادية ـ إلى المسائل التي تتصل بالدين والعقيدة، والدعوة والرسالة، وربما كانت هذه الرسائل الدعوية تحمل مواد تمس فيها الحاجة إلى الأستشارة مع المبلغين المحنكين من الميواتيين وسكان مدينة دهلي، فكانوا يستخرجون لها الحل في ضوء ما عاشوه من تجربة طويلة في حقل الدعوة وعرضها، فربما كانت الرسائل تحمل الحديث عن عوائق في طريق زرع الدعوة في مكان، فكانوا يدلون على آلة ازالة هذه العوائق، وقد تحمل تفاصيل العمل الدعوي في مكان، فكانوا يضعون الأصبع على مواضع الضعف إذا رأوا تقصيرا، وقد تحمل طلبا لمزيد من وفود المبلغين وجماعات الدعاة، فيفكرون في الأمر، ويتخذون له التدابير.

وقد كانت هذه الرسائل تعرض في البداية على مسمع من الشيخ، فقد يعطي توجيهات بلسانه مما يزيد ضعفا وتعبا، فبدأوا ـ اخيرا ـ يقومون بهذا الأمر على بعد منه، وكان هذا الأمر موكولا إلى كاتب هذه السطور، وقد يطلبني إذا وجد فرصة في النهار ويسألني عن نوعية مواد الرسائل، وما توصل إليه الأخوة من الحل والرد، فكان يصلح ويوجه، ويرشد، إذا رأى حاجة إلى ذلك.

وعلى ذلك فكان يدرب الزملاء على القيام بالدعوة من بعده، ويعلمهم آدابها وسليقتها ولا غرو، فقد كانت توجيهاته هذه، وحكمته تلك ذات اثمار ناضجة حلوة.

الحفلات الدعوية في دهلي :

كان يطلب دائما إلى تجار دهلي ان يعقدوا حفلات دعوية، ويطلبوا فيها الكلمات من الشيخ ظفر احمد التهانوي ومن العلماء الآخرين، فعقدت حفلات كثيرة في ارجاء المدينة بالاضافة إلى الحفلة المستقلة التي كانت تعقد كل يوم الأربعاء بالجامع الكبير الذي بناه الأمبراطور المغولي شاه جهان، كانت الحفلات في مساجد المدينة الرئيسية في احياء مختلفة، وكان الشيخ يضع في الأعتبار بصورة خاصة، الجولة والحفلة التي كانت تعقد كل يوم الأحد في مسجد على شارع مشهور في المدينة، فقد كان الشيخ يعتبر هذا المسجد مقرا تبليغيا لمناطق «نيودهلي»، وقد كان يسهم في هذه السعادة الكبرى في اغلب الأحيان كاتب هذه السطور، والاستاذ محمد معين الندوي (نائب امين عام ندوة العلماء بلكهنو حالا) والاستاذ واصف علي البخاري.

ازدياد الزحمة والتجمع :

ويزداد التجمع في نظام الدين مع الأيام، قد يبلغ العدد إلى مائتين او ثلاث مئات او اكثر، وتغطي الزحمة الأنسانية كل ناحية من نواحي مبنى المقر والمسجد وفي الصلاة يزداد الجو منظرا بهيجا وبهاء،

لو أبطأ احد قليلا ولو أغفل قليلا، لما وجد موضع ذراع يمتد فيه في الليل.

وقد ألقى نظرة على هذا التجمع المبارك، وأقول في نفسي: ان هذا الربيع الأيماني، والبهاء النوراني، والنشاط الدعوي، كله يرجع الفضل في ذلك إلى هذا الشيخ العجوز، الذي اصبح حلس الفراش، ورهين الدار، وهو مشرف على الموت، يعدد انفاس حياته، يأكل مئات من الناس من مائدته، وهو يكتفي بما يسد رمقه، من الدواء، ويأقل قليل من الغذاء، أرى هذه الوجوه النيرة الخيرة ومناظر الركوع والسجود، ومشاهد الذكر والتلاوة، وحلق الدرس والمذاكرة والافادة والمناجاة مع الله في الخلوات، ووقت السحر وأقول في نفسي ابقى الله على مجلسك معمورا يا مربي الجيل.

وقدم الشيخ محمد زكريا ومعه المربي الكبير الشيخ عبدالقادر الرائفوري لعيادته وقضاء بعض الوقت فيه.

الشائعة الكاذبة :

كان أهل المدينة على اطلاع متصل على احوال الشيخ، وكانوا يتوافدون إلى نظام الدين بالسيارات والحافلات، وعربات الحصان، ويرجع الذين وفدوا مساء وقت الصباح وبالعكس، وكان الوافدون يطلعون الغائبين على الأخبار وعمت شائعة كاذبة عن وفاة، لا ندري كيف عمت وانبثت كالبرق، ووقعت على أهل المدينة كالصاعقة، فتتابعت السيارات والعربات، والدراجات إلى نظام الدين، وبدأ الناس يتصلون هاتفيا، وهكذا تجمع آلاف من الناس على الرغم من الرد على الشائعة وألقى الشيخ محمد منظور النعماني خطبة في ضوء الآية الكريمة: «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل» كانت خطبة مؤثرة تدعو الناس إلى التفكير، ورأى استجابة دعوة الشيخ محمد الياس فانه إذا كان خبر وفاته اليوم كاذبا، فقد يكون صادقا، لان الأجل لا يؤخر، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا»*.

الايام الأخيرة :

في الساعة الثانية عشرة ليلا في الثامن من يوليو، خرجت إلى مفترق الطرق اتجول، ولما عدت فقال أول رجل لقيته: كان الشيخ يطلبكم، وأرسل رجالا يبحثون عنكم، فدخلت عليه عدوا، وأدنيت سمعي إلى فمه، فقال في صوت مرتعش ما تبينته الا بعد تكريره للكلمات، فقال: قولوا للناس: ان يلازموا الذكر، ويجالسوا الشيخ عبدالقادر الرائيفوري، العالم الرباني، والمربي الكبير الذي جاء يعود الشيخ، وذكر اشياء اخرى ما احفظها اليوم.

وفي ليلة التاسع من يوليو مررت بحجرته قريبا من نحو الساعة الواحدة، فرأيت الشيخ وحوله ممرضون ساهرون، قد دخلت عليه، وجلست في ناحية، وكان مغمى عليه، فأفاق بعد قليل، فذكر رجلا وقال: افهل يبدأ العمل في منطقته، فقلت: وكنت على بينة من الأمر - نعم ان شاء الله سيبدأ، وهو صاحب كلمة مسموعة في منطقته فسيكون لعمله تأثير كبير ان شاء الله، فقال: اي والله ان أهل القلوب هم

* سورة آل عمران.

اصحاب كلمة مسموعة، وامر مطاع.

ومساء العاشر من يوليو اكد على العلماء ان يعملوا، كل حسب مستواه، في مجال الدعوة والتبليغ، وفي صباح الحادي عشر من يوليو شرب من ماء زمزم، ودعا دعاء عمر رضي الله عنه: «اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك».

وفي نفس اليوم طلب رجلا، وأمر أن يسأل عنه عما إذا كان يعزم على القيام بهذا العمل في قومه، وما الاعدادات التي قام بها لذلك، وقال يوما: الطبيب الذي كان يداويه: ان جميع اعضائه قد شلّت، وإنما يقوم بقوته القلبية، وقال: لا تقيسوا على انفسكم، ان ما ترون فيه من النشاط لا يرجع إلى قوة الجسم، إنما يرجع إلى القوة الروحية، ولكن الناس لا يدركون.

الليلة الأخيرة :

وبدأ يستعد في ليلة الثالث عشرمن يوليو للرحلة، سأل احد الحاضرين هل الغد يوم الخميس؟ فقالوا: نعم، قال: انظروا في ملابسي لا تكون نجسة، فقالوا: انها طاهرة، ثم نزل من السرير، وتوضأ، وصلى العشاء مع الجماعة في داخل الحجرة، وأوصى الناس أن يكثروا الليل من الدعاء والنفث عليه، فقال: ليكونن اليوم عندي أناس يميزون بين فعل الشيطان وفعل ملائكة الرحمن، ثم قال الشيخ انعام الحسن ما تمام الدعاء: «اللهم ان مغفرتك...؟» فذكر الدعاء بتمامه : «اللهم ان مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي»، وظل يردد الدعاء، ثم قال: احب ان تغسلوني وتنزلوني من السرير، وأركع ركعتين، سيكون لهما شأن.

وفي الساعة الثانية عشرة غشيته اغفاءه من الأغماء والإنزعاج، فدعى الطبيب هاتفيا، فحضر، واعطاه حبات، وظل يردد طول الليلة: الله اكبر، الله اكبر، وفي السحر طلب ابنه الشيخ محمد يوسف، والشيخ اكرام الحسن، وقال للشيخ يوسف: تعال نلتقي، فلا بقاء بعد هذه الليلة، فاني مرتحل وانتقل إلى رحمة الله قبل إذان الفجر، انتقل المسافر المكدود - المجهود، الذي ربما لم يكتحل عبر حياته بنوم هادىء - إلى نوم عميق، لأنه قد وصل إلى منزله ومستقره، «يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»(*).

وبعد صلاة الفجر نصب الناس -وهم مستعبرون منكسرون - الشيخ محمد يوسف خليفة له، ووضعوا عمامته على رأسه.

الغسل والتكفين، والدفن :

ثم غسله العلماء، والفقهاء، ولازموا في عمليته جميع السنن والمندوبات، وطار الخبر في المدينة، وتقاطر

* سورة الفجد ٢٧-٣٠

الناس، وما ان مضت ساعات حتى كان الحشد هائلا، الحشد الذي ما كان للشيخ المرحوم ان يراه فارغا مهملا، عاطلا، وامر الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ محمد يوسف ان يجمع الناس في الميدان المجاور، ويلقى الحديث إليهم، وقد تحدث الشيخ ظفر احمد، والمفتي كفاية الله، وغيرهم، وأوصوا الناس بالصبر والاستقامة.

وصار الحشد هائلا يكاد لا يجمعه جامع، ولا يقيده نظام، وصلى عليه الشيخ محمد زكريا، ووضع جثته - بعد مشاق طويلة من الزحمة التي تفوق السيطرة - في قبره بجوار شقيقه، ووالده في الجانب الجنوبي من المسجد، واختفت في الأرض هذه الشمس الأيمانية المشرقة التي تنورت بها نواحي قريبة وبعيدة - قبل غروب شمس اليوم الثالث عشر من يوليو.

أخلافه :

وخلف الشيخ ابنا وبنتا، اما الأبن فهو الشيخ محمد يوسف، وأما البنت فهي زوجة الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي، وكان الشيخ محمد زكريا حفظه الله ابن اخيه الأوسط محمد يحيى، وتلميذه، وممن كان يثق بهم، ومن ذكرياته الحية - بالاضافة إلى هؤلاء الأخلاف - ألوف من المتصلين به، والمؤمنين بدعوته، ولا سيما أهل ميوات، الذين وقفوا حياتهم على حركته، ولا غرو إذا قال قبل وفاته بأيام : ان الناس يخلفون اشخاصا وقد خلفت - والحمد لله - بلدا كاملا.

وما مات من كانت بقاياه مثل   هم شباب تسامى للعُلى وكُهُول

وكان رحمه الله أسمر، قصير القامة، نحيل الجسم، غاية في التحرك والنشاط، لا يعرف الكسل والكلّ، كث اللحية السوداء، تتخللها شعرات بيضاء لا ترى الا من قريب جدا، ينمّ وجهه عن طول التفكير، والسهر والمجاهدة في العبادة، وتشفّ جبهته عن بُعد الهمة والطموح، والالمعية والفراسة، في لسانه عقدة، ولكن في صوته قوة وصلابة وفي حديثه حماس، وقد يتحول الكلام عندما يصطدم بالعقدة في لسانه، إلى شلال يتدفق.

---

(١) كان من العلماء العاملين النشطين المنتجين ، يرجع إليه الفضل في اتمام بناء الجامع الكبير في بهوفال، الأحتفال السنوي الأكبر المنعقد في كل سنة في هذا الجامع، توفي في ١٧ من اكتوبر ١٩٨٣م.

(٢) كان من ذرية المصلح الكبير الأمام احمد بن عبدالاحد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني، وكان من المشائخ الكبار توفي في باكستان.

(٣) كان من نوادر الرجال الجامعين بين الثقافة الدينية القديمة في رسوخ ووعي، والثقافة العصرية المدنية في توسع واتقان، دام مديرا لندوة العلماء ثلاثين (٣٠) سنة وتقدمت في عصره تقدما ملحوظا، كانت وفاته في ١٣٨٠هـ، وهو شقيق المؤلف الأكبر وصاحب الفضل في تربيته ودراسته وتكوينه العقلي والثقافي رحمه الله وجزاه خيرا.

(٤) كان من نوادر الرجال العاملين في مجال الدعوة والتبليغ اخلاصا وفقها وسعة أفق، نفع الله به في اليابان وأسلم على يده عدد كبير من أهل البلاد، اشتغل مهندسا كبيرا في مصلحة الهاتف الأتوماتيكي في جدة ومات شهيدا في حادثة سيارة وكانت وفاته في ١٥ من شعبان سنة ١٣٨٣هـ.

(٥) كان من خريجي دار العلوم ندوة العلماء، ومن الشباب الصالحين العاملين توفى في بلده في الحدود الشمالية الغربية.

(٦) مقتبس من المذكرة التي سجلها الأستاذ ارشد الباكستاني.

(٧) هو الخطيب المصقع، وقائد جماعة الأحرار، مثل دورا كبيرا في الرد على القاديانية وبث روح الكفاح ضد الحكومة الانجليزية. توفي في ٩ ربيع الأول سنة ١٣٨١هـ (٢١ اغسطس ١٩٦١م)

(٨) نقلا عن مجلة «الفرقان» الشهرية عددي رجب، شعبان ١٣٦٣هـ.

(٩) مذكرات الجماعة التبليغية بقلم الأستاذ ارشد.

(١٠) وليكن ملحوظا ان المراد من الكُتّاب ليس الكُتّاب المعروف، الذي يشرف عليه «فقيه» أو «عريف» وإنما كان هذا الكُتّاب عبارة عن فراش من مسوح تحت شجرة، يجلس عليه جماعة من المبلغين، يعملون على تبليغ الدين وتعليمه على اسلوب اصحاب الصفّة النبوية، على صاحبها الصلاة والسلام، كانوا يجتذبون المارة بجراء الشيشة التي كانوا يدمنونها، ويلقّنونهم الدين، وهذا الكُتّاب يهدف أصلا إلى ذلك.

(١١) هو الشيخ الأمام الزاهد الكبير والداعية العظيم الحسن بن الحسن السّنجري شيخ الأسلام معين الدين الأحمدي (٣٧هـ - ٣٢٧ هـ) أسلم على يده خلق كثير لا يحصى لجدّ وعدّ. مات ودفن باجمير (ولاية راجستهان) يرجع للتفصل إلى كتاب نزهة الخواطر ج١ (٣) هو الشيخ الأمام العالم الكبير نظام الدين محمد البخاري البهابوني انتهت إليه الرئاسة في دعاء الخلق إلى الله (٢٣٣ - ٧٢٥هـ) (نزهة الخواطر ج٢).

الباب السابع
مزاياه الشخصية ومنابع دعوته ونشاطه

الباب السابع
مزاياه الشخصية ومنابع دعوته ونشاطه

من الصفات التي كان يمتاز بها الشيخ محمد الياس «الايمان والاحتساب» اللذان كانا السمة الغالبة ويسودان كل ناحية من نواحي حياته العملية، وكانا روح اعماله وجوهر نشاطه وتحركاته.

وهما: ان يعمل العبد وهو يؤمن بالله ربا والها بمعنى الكلمة، ويعتبر طاعته غنما واشارته حكما، ويقدرهما حق قدره، فيكون اليقين والايمان بما وعد الله من اجر وثواب وانعام واكرام، والحرص على نيل رضاه، والاخلاص لوجهه الكريم، مصدر اعماله ومحور حركاته الوحيد، فقد روى الامام البخاري في صحيحه: «من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»، «ومن قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه».

والواقع ان ذلك هو روح العمل وحقيقته التي تجعله يصل في طرفة عين من الأرض إلى العرش، ومن الثرى إلى الثريا، واما بدونه فالعمل مقصوص الجناح لا يكاد يطير، واليك حديثا أخر يلقي مزيدا من الضوء الكاشف.

«عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اربعون خصلة، اعلاها منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها الا ادخله الله بها الجنة (١).

وقد استرعت كل هذه المعاني في قلب الشيخ انتباها واسعا، فأعارها الشيخ نصيبا أكبر من العناية والاهتمام، وظل يرعاها طيلة حياته، وبذل لها قصارى جهده، وما أدل على المبلغ الذي بلغته هذه الحقيقة ـ عنده من العناية والتقدير ـ، من المقتطفات التالية من رسائله :

١ ـ «باطن الدين» : «الايمان والاحتساب»، وقد قيل في كثير من الأعمال: «ايمانا واحتسابا» فالنظر في جميع الخطابات التي وردت في كل من الأعمال، واستزادة اليقين والايمان والثقة بالله، وتصعيد التقرب منه، واستعظام عظمته وكبريائه، ثم الأجر والثواب والنعم الكثيرة والعطايا المتنوعة الوفيرة من الدين والدنيا مما وعد به الله سبحانه وتعالى، اعتبار كل ذلك انعاما منه واحسانا خالصا لا جزاءا وعوضا، هذا هو «الباطن».

٢ ـ «ان الأعمال بنفسها ليست لها أية قيمة ووزن، وانما الذي يجعلها ذات قيمة واعتبار هو: نية طاعة الله تعالى وامتثال أوامره، والحرص على الأتصال به، وتعزيز العلاقة، معه، فقوة تلك الصلة تقوى الأعمال، وبقدر ما تصدر الأعمال عن طمأنينة قلب وعن يقين وايمان، تزداد قيمتها، ويثقل وزنها، ويتعزز اعتبارها.

٣ـ فقدان التحمس والاندفاع الذى ذكرتموه فى رسالتكم جعلنى أغتبط به، فحقيقة امتثال أمر الله أن يجعل هذا الأمر ـ نفسه ـ المؤمن يخضع أمام حقانية هذا الأمر وعظمته، وحماسته واندفاعه، فان الحماسة وليدة الطبيعة والجبلة، فان صدر العمل عن الحماسة فهناك « حب طبعى » وان كان عظمة الأمر ونية الامتثال والشعور بلزوم الطاعة وفرضية العبادة، فذاك « حب عقلى» « حب ايمانى»

٤ـ ان الأغتباط بالعمل القليل ربما يسبب عدم الشعور بالتقصير والاهمال اللذين قد يرافقان الأعمال ، ولذلك فيجب أن نبالغ فى التوقى من الوقوع فى مثل هذا الخطأ والانخداع، وإنما النجاح الحقيقى هو الجد فى العمل، دون اكتراث او نظر إلى ما يترتب عليه من الأثر الحسن فى الحياة الدنيا، فان الغرض من كل ما أمر به العبد هو الأجر الذى وعد به الله فى الحياة الآخرة وذلك إنما يتعلق بالعمل والعمل وحده، ومرة ثانية يجب التحصن كل التحصن من أن نؤخذ بما يأتي به العمل فى الأثر الخادع فى الحياة العاجلة الفانية، فيقف دون ادراكنا أخطاؤنا وتقصيرنا ودون استدراكنا لما فاتنا، ولذا فيتحتم علينا أن نركز عنايتنا على ذلك الجانب تفاديا من التبجح بالنتائج والثمار..

٥ـ..لنواظب على العبادات والاذكار جاعلين جميع النصوص التى وردت فيها نصب أعيننا، واثقين بما وعد الله عليه من الثواب، ولنعلم أن رأس الأمر هو الفوز بتلك الثقة واليقين، وبما أن ذلك يتعلق بالقلب، فان اليقين والثقة مكانتهما من الأعمال مكانة القلب ...

٦ـ...لكل وقت بركاته وفضائله الخاصة به، وقد وردت السنة فى كل ذلك مصرحة به، وحسب العامة أن يدعوا الله عند أداء كل صلاة أن يجعل الله لهم نصيبا من بركات ذلك الوقت...

٧ـ...قد كتبتم تذكرون عدم اقبال القلب وعدم الالتذاذ، فاعلموا أن ذلك أمر لا يهم فلا حاجة إلى العناية به والاقبال عليه، والذي يتطلب منا تمام الأهتمام وكل العناية هو أن نقوم بالعمل ونعتبر الطاعة والامتثال هما كل شيء له مكانة وأهمية لا يستهان بهما......

وقد ركز الشيخ كل حركته ونشاطه على «الايمان والاحتساب» فلم يرم بأى عمل من أعماله الا رضا الله، ولم يهدف الا إلى التأسى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم ينوالا الحصول على الأجر الموعود على السعى المتواصل والجهد المتتابع فى سبيل الدلالة على الخير والدعوة إلى البر والتقوى، ولم يرد الا التهيأ للحياة، فقد قال فى رسالة:

«ان عملية الدعوة والتبليغ تتعلق بالقلب كما تتعلق بالجوارح، أما علاقته بالقلب فهى كما يلي:

١ـ طلب رضا الله، والانتساب به تعالى وبالانبياء عليهم الصلاة والسلام عامة، وبسيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة.

٢ـ الامعان فى مضمون« الدال على الخير كفاعله» بكل قوة وارادة، ثم كل من تذكر بسعيه واهتدى بدلالته، فقام بالصلاة والتلاوة، والذكر والعبادة، اعتبار كل ذلك أجرا وذخرا.

٣ـ ايجاد القوة فى الدعاء والالتجاء والانابة إلى الله، والايمان بكونه سميعا عليما، والتضرع إليه لنجاح الدعوة والتبليغ.

٤ـ اعتبار التوفيق لهذا العمل الصالح فضلا من الله، ونعمة، فلا يضيع عليه أية فرصة.

٥ـ التمرن القلبى على التواضع والحلم والتودد مع المسلمين.

يقول فى رسالة أخرى:

«يجب على المسلم أن يضع نصب عينيه مشاهد القيامة، فان ذلك يساعده على تدعيم العمل الديني، ويقويه على المواظبة عليه، ويعتبر الأجر ـ الذي أشار إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ـ على كل عمل قام به لله، ذخرا له ليوم القيامة، متذكرا جلالة النبي عليه الصلاة والسلام».

رعايته للحقوق :

وكان لديه عناية كبيرة بحقوق الناس، ولا سيما إذا كانوا من ذوى العلم والثقافة، والدين والشرف، وكانت بصيرته بهذا الخصوص نفاذة ذات دقة وعمق واجتهاد» تدل على ذلك صفحات هذا الكتاب أوضح دلالة، ويشهد بذلك كل من صاحبه وعاشره معاشرة ذى وعى وادراك ولو لعدة أيام ، وسيشاركنى فى الأعتراف كل من خالطه بأنه كان من رجال «الاجتهاد» فى تلك الناحية، وتعامله مع الناس، واقواله واعماله واحواله كل ذلك يدلنا دلالة صارخة على ان رعاية الحقوق وأداءها إلى أصحابها، كانا رمزا لمعظم سلوكه وتصوفه وربانيته، ومن هنا فكان يعتبر ذلك من أهم الواجبات، يقول فى رسالة له :

... تبادل الحب والاحترام والاكرام فيما بين الأخوان لأهم وأخطر شيئ، وان رعاية هذا الجزء الواحد من الحقوق، وتوطين الطبع على ذلك لا فضل وأقوى وأبلغ ارضاء الله جل وعلا من الكثير، سواء من القضايا الحقة.

وكان يتعهد كذلك الحقوق الأنسانية العامة، فكان لا يجوز عنده غمط أى حق من تلك الحقوق، ولا ما يتعلق بالكفرة والمشركين ومن إليهم من غير المسلمين، ولا فرق فى ذلك فى الحل والترحال .

فهو يمنع رفيق سفره ـ وقد حجز على مقاعد القطار من المكان أكثر مما كانا يحتاجان إليه ـ أن لا يفعل ذلك، قائلا: ان ذلك من الحقوق العامة، وها هو ذا يريد أن يصلى المغرب فى القطار فيحاول رفيق من رفقاء سفره أن يمنع الركاب من المرور أمام المصلين، فيرفض هو قائلا ان ذلك من الحقوق العامة، فاتخذوا أنتم سترة، ولا تجعلوا المسافرين يضيقون ذرعا بنا.

وكانوا فى رحلة راكبين سيارة، فاستوقفوها فى بعض الطريق لصلاة قد حان موعدها، وبعد أداء الفرض راح بعضهم يصلون النوافل، فقال: اخوانى! ان هذه الزحمة من الركاب الذين لجئوا إلى الوقوف من أجلهم أحق بطى الطريق .

اخلاقة وتواضعه:

الخلق الحسن، والتسامح مع الناس، والتواضع مما لا يندر وجوده في عالم الناس، أما أن تكون تلك الخلال والصفات محكومة بالايمان والاحتساب، منسجمة مع مبادئ الأسلام، متوافقة مع روح الشريعة المطهرة، فذاك شيئ من القلة بالمكان الذى يصعب مناله .

وكانت فكرة شيخنا فيما يتصل بالأخلاق ،أنها ليست بشيئ حتى تكون تحت قدمي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد قص علينا مرارا أن الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند الذى كان من قادة حركة تحرير الهند، ومن أجلة علماء شبه القارة الهندية إخلاصا وربانية، وتعمقا في فهم روح الشريعة والكتاب والسنة - لما عاد من «مالطه» بعد ما أطلق سراحه، وقد كان أعتقل من أجل قيادته لحركة تحرير البلاد، وأقيمت له مآدب كبيرة، وقد حضرت أنا احدى تلك المآدب وجلست على المائدة بجانبه، لا يحول بيني وبينه شيئ فجعل المضيف يذكر محاسن ومكارم ضابطه الأنجليزى حتى أتى من الثناء على نواحيها، ومضى في عدها بامعان واستغراق، حتى حشا مسامع «شيخ الهند» وأصبح شيخ الهند لا يطيق الإ ساغة مع الكمية الكبرى التى كان يتمتع بها من قوة التحمل، فعيل صبره، وهمس إلى أذني: « أفهل يكون لدى الكافر ما يسمى ب «الخلق» ؟!

ولو عاشره معنى بالسنة لا درك مدى نفوذ نظره إلى دقائق خلقية، وكم كان يراعيها في سلوكه وأعماله التي كان يمارسها ليل نهار، وقد كتب هذا العاجز- كاتب هذه السطور- إلى تلاميذ دار العلوم ندوة العلماء الذين كانوا ملازمين الشيخ منذ أيام للاستفادة: انكم قد درستم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد اطلعتم منها على ما يتعلق بالاخلاق والمعاملات، فادرسوها الآن في الشيخ، وانظروا كيف يعمل بها، وتعلموا كيف يكون تطبيقها على الحياة تطبيقا واقعيا علميا"

يقول في رسالة إلى صديق له، يقول فيها :

«... مهما كان المسلم وضيع المنزلة، ضعيف الرأي، فدربوا نظركم على أن يقع عليه بالاجلال والاكرام ، لأن الأسلام فوق كل شيء».

وقد بلغ من تمرنه على ذلك أن كان لديه من ينتسب إلى الأسلام مكرما مبجلا، ولو كان أحط ما يكون درجة وأسوأ ما يكون سلوكا، لا يصوم ولا يقوم، ولا عهد له بالفرائض والواجبات مما نروح نظن أنه يعتبر، أفضل من نفسه إرضاءا لربه، وكلما كان يجتمع بمسلم لا ينسى صفة أمانه وإسلامه، وكان يتغلب دائما اكرامه لهذا الايمان وحفاوته على شعوره بعيوب صاحبه ومواضع ضعفه، وقد انتهى به قوة ادراكه في هذا الباب إلى أن كان لا يلبث أن يميز بين مواطن الخير والشر في كل من يلاقيه، فيركز نظره على ناحية الاكرام ويشمله بالاحتفاء والاكبار.

ولقى مرة رجلا، وقضى فيه حاجته إلى التوقير والاحترام، ثم قال :

«انى لأعلم ما قام به الرجل من دور فعال في الحاق الضرر الفادح بجماعة تعمل للدين، وقد آلمني ذلك الأيلام كله، ولكني أعلم كذلك ما يتمتع به هو من المكانة في العلم، وقد أكبرت فيه هذا العلم .

الدلالة على الخير :

يرى الشيخ أن كل من حبسته وظيفته أو شغله عمله أو هو عاجز ضعيف، ورغم الأشغال والأعذار يريد أن ينال في هذه الحياة الوجيزة القصيرة، الأجر الذي لا ينقضي، والثواب الذى لا يغيض، والعوض الذى لا يقل، والذخيرة التي لا تنقص، فليس له هناك سبيل الا الدلالة على الخير، وممارسة الدعوة والتبليغ بالاخلاص والاحتساب، وكان يرى أنه لو كان هناك رجل يصوم النهار ويقوم الليل ويتلو القرآن كل يوم أو يتصدق بألاف الروبيات كل يوم، فسوف لا يبلغ به كل هذه الأعمال باجتماعها بالقياس إلى البركة والنور والقبول الحسن المبلغ الذى يبلغه الدالون على الخير، الداعون إلى الله، باستحقاقهم كل لحظة من لحظات اليوم والليلة أجر مآت ألف رجل عن طريق صلاتهم وصومهم وإيمانهم واحتسابهم، وبما ينزل على أرواحهم منذ قرون من شآبيب الأنوار والبركات، والرحمة والغفران، والأجر والإنعام، وبحكم دلالتهم على الخير، فكيف يعدل ياترى عمل رجل واحد واخلاصه، وأعمال المآت من الناس واخلاصهم وانهماكهم وشوقهم ؟ كلا! .

ولذلك فالشيخ كان يفضل «الدلالة على الخير» بحكم أنها الخير المعدي على العبادات الشخصية، والأعمال النفلية، على شدة حرصه واعتنائه وانكبابه على كل ذلك يرجو الثواب في الدعوة إلى الله أكثر من أى شيء أخر، فاقترح على شيخ قد عمل في حياته أعمالا جليلة، ثم أصبح يتدرج إلى ضعف في الجسم وخور في العزيمة والقوة، فاقترح عليه عن طريق زميل له: انك أصبحت لا تطيق العمل مثل ذى قبل والوقت قصير والعمل كثير- وحينئذ فالنظر في المصلحة، والدقة في النظر، والتفقه في الدين، والمعرفة بمتطلبات الوضع، كل ذلك يقتضى أن تسهم في الأجر والثواب بالدعوة والتبليغ، إلى كل من الأصدقاء والزملاء والمجتمعين بك والجالسين اليك، ومن يستمع من الناس اليك، عن طريق الكتابة والخطابة والمكاتبة والمراسلة، والتشويق والترغيب.

ان هذه الحركة، حركة الدعوة والتبليغ كان يراها أسهل الطرق وأقواها للحصول على «الايمان والاحتساب» غير أن طلب الأيمان والاحتساب قد أخذ منه كل مأخذ، فلا يخطو خطوة الا ويريد بها وجه الله تعالى، ويرجو فيها الثواب، ويرى فيها نفعا من المنافع الدينية، وربما كان من المستحيل أن يقوم بعمل دعته إليه نفسه، فكأنه اصبح «لا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه» - كما جاء في صفة النبى عليه الصلاة والسلام في شمائل الأمام الترمذي- فكل حركة أو سكون أو فرح وسرور إنما كانت تصدر عن الطمع في الأجر، والحرص على ما فيه مصلحة الدين، فلا يتكلم الا لذلك، ولا يحضر المناسبات والحفلات الا لذلك، ولايغضبه الا هذا، ولا يرضيه الا هو وحده، ولايعنيه كل مالا صلة له بهذه الغاية، ولا يفوتة ذلك حتى في الأشغال اليومية والأعمال التافهة، وكان كما قال الشيخ محمد منظور النعماني- ربما لا يشرب كوبا من الشاى بدون النية، ولا يقدمه إلى أحد الا وينوي رضا الله تعالى.

ففي كل عمل يعمله، وكل مناسبة يشهدها، وكل وظيفة يقوم بها، ويحرص في كل ذلك على أن يحصل على خير ما فيه من المنافع الدنيوية والأجر الأخروي، والتقرب إلى الله تعالى وكان يوجه كل عمل من أعماله إلى العبادة بحيلة عجيبة وبطريقة لطيفة، وقد تعدت قوته الفكرية وذكاؤه المتوقد في ذلك مستوى الثقافة الدراسية والعلم الكتابي إلى درجة الحكمة والتفقه، وقد بلغ في ذلك الحد الأقصى من إرهاف الحس ودقة الشعور وحضور الخاطر، حتى كان يشير على أشخاص ذوي مستويات مختلفة بالحصول على الثواب في عمل واحد بنيات مختلفة .

وقد حكى الشيخ محمد منظور النعماني قصة طريفة تدل على ذلك، فقال :

«قد حضرت» الى بستي نظام الدين في دهلي في وقت الظهيرة، والشيخ يقضي آخر أيام حياته، وقد بلغ به المرض الذي توفي فيه - إلى أن لا يقوى على القيام ولا على القعود، وكان بعض الخدم الميواتيين يساعدونه على الوضوء لصلاة الظهر ، إذا به قد وقع نظره على فدعاني باشارة من اصبعه وقال يعظني:

«فضيلة الشيخ! ان عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - كان يشاهد عليا رضي الله عنه حينما يتوضأ هو، مشاهدة متعلم، مع أنه كان قد رأي مباشرة شخص النبي - عليه الصلاة والسلام - وبعده أبابكر وعمر رضي الله عنهما، كيف يتوضئون، فلما فرغ الشيخ من قوله جعلت أدرس وضوءه دراسة امعان وتلق، فانتهت بي تلك الدراسة وهذا الأمعان إلى أن توضأ الشيخ في هذه الحالة الضارية، وهو يعاني من شدة المرض ما يعاني، يحمل لنا عبرا، ويلقي علينا دروسا،، واضاف الشيخ - محمد الياس رحمه الله - قائلا وهو يشير إلى الميواتيين الذين كانوا يعينونه على الوضوء:

«هؤلاء المساكين - الذين ترونهم يعينوني على الوضوء - دوما أقول لهم: انكم تحبونني وتخدمونني من اجل طلب رضا الله، وانتم تظنون انني احسن القيام بالصلاة ما لا تحسنون انتم، إذا فاعينوني راجين من الله ان يجعل لكم نصيبا من اجر صلاتي، وادعو الله: «اللهم ان عبدك هذا يحسن القيام بالصلاة - كما نعتقد نحن - ما لا نستطيع نحن، فنساعده على وضوئه رجاء أن تجعل لنا الحظ من صلاته»، وأنا بدوري أدعو الله: «اللهم! ان هؤلاء السذج من عبادك يعتقدون في هذا الأعتقاد الكبير، ويحسنون بي الظن ما لا يخفي عليك، فلا تفضحني، وتقبل مني صلاتي، واجعل لهم نصيبا منها».

«واضاف قائلا: لو رحت أعتقد أني أقوم بالصلاة أحسن القيام بالنسبة إلى هؤلاء» لاكون من المطرودين الخاسّرين، نعم اني أرجو الله تعالى أن يقبل صلاتي بفضل هؤلاء السذج المساكين المخلصين من عباده»

أنظر كيف دل ثلاثة أصناف من الناس - حسب مستوياتهم - لنيل الثواب على طرق مختلفة عجيبة في وضوء واحد، بنيات مختلفة، فدل الشيخ محمد منظور النعماني على فضيلة التعلم ومكانته الكبيرة، وعلى طريق تلقي الثواب عن طريق نية تتبع السنة وتحسين الوضوء وتصحيحة في ضوئها، ودل الميواتيين على

طريقة نيل الثواب عن طريق المشاركة في الصلاة التي هي تحمل درجة الأحسان»، ودل نفسه على طريق الحصول على الثواب عن طريق حسن الظن بالعباد، وعن طريق رجاء قبول صلاته بفضل حسن ظنهم به.

كيفية الأحسان الذي صوره الحديث :

يبين الحديث الشريف كيفية الأحسان فيقول: «أن تعبد الله كانك تراه» وفي رواية «أن تخشى الله كانك تراه»، وكان رحمه الله نموذجا عمليا لذلك في معنى الكلمة، وربما يكون في الجلوة كانه في الخلوة يناجي ربه، وقد صدق الشيخ محمد منظور النعماني - وقد شاهدت ذلك مباشرة - حينما قال:

«انه كان يقرأ الكلمة الجامعة الشاملة: سبحان الله وبحمده، اشهد ان لا إله الا انت وحدك، لا شريك لك، استغفرك واتوب اليك، يا حي يا قيوم برحمتك استغيث، اصلح لي شاني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» - وقلما كان يتوقف عن قراءته بأسلوب وكيفية كانه يقرأها بين يدي عرش ذي الجلال والاكرام».

استحضار القيامة وتمثل الآخرة :

كذلك بلغ من استحضاره القيامة وتصوره للآخرة إنه كان يجعلنا نذكر قول سيد التابعين الحسن البصري - رحمه الله تعالى - في وصف قوة صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم - رضي الله عنهم - لتصور يوم القيامة «كانهم رأوه رأي العين».

فسأل مرة احد سكان ميوات: ما الذي جاء بك إلى دلهي؟ اجاب الرجل بحكم سذاجته: جئت لأزور دلهي، الا أن اسلوب سؤال الشيخ جعله يشعر بخطئه في الجواب، فبدله بآخر من ساعته قائلا: اتيت لأتشرف بأداء الصلاة في المسجد الجامع، ثم لم يلبث أن أتى بجواب ثالث، فقال: إنما أتيت لأزورك، سمع الشيخ كل ذلك وقال: أين دهلي أو المسجد الجامع من الجنة؟ ثم من أنا أتيت لزيارتي، جسم إلى التراب يعود، ثم ياكله الدود، ثم راح يفيض في ذكر الجنة ونعيمها، فعدنا كاننا نراها.

الايمان بفناء العاجل وبقاء الأجل قد بلغ منه كل المبلغ، حتى يتجلى ذلك في رسائله وكتاباته وحديثه في الليل والنهار فقال في رسالة له إلى الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي:

«اطلب إلى الشيخ عبدالقادر الرائيفوري ان يشرفنا بقدومه الميمون إلى «بستي نظام الدين» ولو لأسبوع أو أقل، فان الدنيا ظل زائل».

وقد قال لكاتب هذه السطور مرة : «سنتقابل - ان شاء الله - في لكهنو، فما هي الا ثانية أو أقل حتى قال: ما لذة اللقاء في السفر؟ ان شاء الله سنلتقي في دار القرار»، فشعرنا كأن مسافرا بالقطار يقول لمسافر: ما لذة اللقاء في القطار؟ سنجتمع في البيت، ونلتقي هنا! فالبساطة بساطة المسافر في القطار، واليقين يقينه.

وقد ذهب يعزي عمّنا الشيخ محمد طلحة الحسني (١) الذي كانت توفيت زوجته - وهي عمتي - فقال: له فيما قال: إنما مثل الحياة مثل باب يغلق احد مصراعيه أولا ثم الآخر، وهكذا كل نفس ذائقة الموت هذه أولا، وهذه ثانيا.

الاقبال الكامل على مهمته والانهماك البالغ فيها :

ونفض يده من اجل مهمة الدعوة والتبليغ من كل شيء، وتفرغ من كل عمل منذ أعوام، فلم تعد له علاقة بما سواها، قال في رسالة إلى الشيخ محمد زكريا قبل مدة غير قصيرة: «ان امنيتي الحبيبة الاثيرة ان يتجرد عقلي وقلبي، وقوتي ووقتي، من كل شيء سوى هذه المهمة»، وكثيرا ما يقول: كيف يجوز لي الأشتغال بما عدا الدعوة والتبليغ بينما نرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان روحه في أذى مما يمر به المسلم المعاصر من الوضع السيء وضعف الدين والعقيدة، والانحطاط والذلة، وفقدان المنعة والعزة، على حين ان الكفر له صولة وجولة.

وقد شكا إليه احد ممن كان يتمتع بعطفه وحنانه: «انني اشعر بالقلة والدون في العطف والكرم البالغين اللذين كنت احظى بهما من قبل سماحتكم»، فرد عليه الشيخ قائلا: ان لي شغلا شاغلا عن كل ذلك، انني جد منهمك في هذه المهمة الكبرى - الدعوة والتبليغ - فاني لاشعر بما تعانيه روح النبي الطاهرة صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى فلست لأقبل على شيء ما سواها.

وربما يمثل نفسه بالشرطي الذي يقف على مفترق الطرق، يلاحظ المراكب والسيارات، والعجلات والدراجات ويراقبها ويعطيها اشارة الوقوف والسير، وكان يقول: لست انكر ان هناك عمليات اخرى ذات الأهمية، والنفع العظيمين، الا ان الانصراف إليها عن المهمة التي نعالجها شيء ذو خطر خطير وضرر كبير، وقد استرعت عملية الدعوة كل عنايته، واستجلبت كل تفكره وتدبره، ووقفت سدا حديديا بينه وبين التفكير في شيء سواها، وانتهى ذلك إلى ان سأله مرة صديقي المحترم الأستاذ محمد ناظم الندوي (١) - ونحن في جولة نمر بدلهي الجديدة - عن مبنى ذي شأن، فقال: مولانا! ما لي ولهذا المبنى؟ ان العلم بذلك في واد وأنا في واد.

ولذلك كان يمتنع عن الحضور في المجالس التي لا تتيح له الفرصة لعرض الدعوة، اما الحضور لمجرد المداراة والملاطفة، فكان يشق عليه كثيرا، كانت فكرته هي: «لابد من عرض الدعوة في الحل والترحال، وايثارها على كل شيء في كل حال، وقد حكيت له مرة حديثا للعلامة السيد سليمان الندوي، فقد قال بعد الأياب عن حفلة: «لكي اعرض على الحضور كلمة مني واحدة، احتاج إلى ان اسمع عشرات من الكلمات فظل يقف عليها طويلا يتلذذ بها.

واما اكبر عليه أن يسمع أحدا يخوض في حديث لا يحمل مصلحة ولا يرى إلى هدف، ولذلك فتراه ربما يتوقف عن مثل تلك الأحاديث، فقام يؤنبهما: اطلبا مكانا آخر من القطار تتكلمان فيه، ففي المكان متسع، وكل من يجالسه ويختلف إليه كانوا يراعون ويحتاطون اطلاعا منهم على طبعه الشريف، ومعرفة

منهم بما يؤذيه وما يسرّه، لكن الموقف كاد يكون احرج ما يكون، إذا ما يتوافد الوافدون الجدد، ولا سيما إذا كانوا من طبقة العلماء، فنقضي من عجبنا، بما نراه يكلف نفسه تحمل ما لا طاقة لها به، وهو طلق الوجه، منبسط الأسارير.

ولم يكن ينسى عمله مهما قصد وطنه «كاندهله»، أو زار احدا من اقربائه، وكان يوجد الفرصة لعرض دعوته، بطرق عجيبه واساليب ظريفة، ويجد مادة للكلام في كل شيء: في سفر يقوم به وفي مجلس يحضره، وفي مناسبة يشهدها، ويعرض دعوته عرضا تستسيغها العقول دون كل وملل، وتلتذ بها النفوس الواعية طويلا.

اتفق له ان يحضر مناسبة عقد الزواج لأحد من المخلصين له في دهلي، فلم يدع الفرصة المتاحة تفوته دون ان يستغلها، فقال يخاطب الفريقين (فريق الزوج وفريق الزوجة): انكم تسعدون اليوم بمناسبة يتمنى فيها كل واحد منا أن يرضى الناس حتى اللئام والاراذل والادنين من الناس، فما صنعتم ازاء إرضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم دعا الناس إلى الدعوة وتكريس الجهود الممكنة لاحياء ما جاء به عليه الصلاة والسلام، مقررا ان ذلك انشط عامل لارضائه صلى الله عليه وآله وسلم، وأقوى ذريعة للتزلف إليه.

ولم يكن يكتب كتابا إلى احد الا فيما يتصل بالدعوة والتبليغ، وان اضطر إلى كتابة رسالة فيما لا يتصل بذلك، لم يدع ان يستهل الرسالة بما يتعلق بالدعوة، ويختمها بذكر الحاجة، وقد رأينا طالبا من «ميوات» يريد الأنتساب إلى «دار العلوم ديوبند» يلتمس إليه ان يكتب كتابا يشفع له لدى مدير الجامعة سماحة الشيخ محمد طيب، فملأ الكتاب مما يتعلق بالدعوة الا سطرين أو أقل ينطويان على الشفاعة.

واذكر انا - كاتب هذه السطور - انني كلما كنت اقوم بزيارة قريب او صديق، يسألني اول ما يسألني لدى رجوعي هل عرضت دعوتك؟ هل قمت بأمانة التبليغ فيهم؟، ويقول - كلما يكون الجواب: ايها الأستاذ «ان العلاقات» كلها ميتة ما لم تكن تحت قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعني ان العلاقات إذا لم تُستغلّ لنشر الدين والقيام بالدعوة وتدعيم النشاطات الاسلامية فهي متجردة من الروح فارغة من كل خير وبركة.

وكان يرى ان الحضور في المناسبات وتلبية الدعوات إنما يصححان إذا رافقها عرض الدعوة وكان يعتقد ان هذا هو المكسب الوحيد الذي من اجل الحصول عليه يشهد المسلم المناسبات، ويقبل الدعوات، ويحضر الحفلات والمأدبات، ويتبلور ذلك في الأسلوب الذي يختاره لدى توجيهه الدعوة للحضور في مناسبة عقد الزواج لأحد من افراد اسرته في بيته، بالكلمات الآتية:

«انني ارى - المسلم يعيش ما يعيش من الانحطاط والانهيار وفقدان الوعي الديني - الأحتفال بمثل هذه المناسبات دلالة على فقد البقية الباقية من الوعي الصالح، الا ان ذلك مما سيجمع بين علماء الدين ورجال اليقين واولي الوعي والغيرة من المخلصين، سمحت نفسي بتوجيه الدعوة إلى جميع سادة زملائنا واحبائنا

فليتكرموا علينا بالحضور، وليحظوهم بسعادة الدنيا والآخرة، وليتفضلوا علي باتاحة فرصة سعيدة تمكنني من عرض برامج الدعوة والتبليغ».

وكان - رحمه الله - اكثر ما يكون تحصنا واستنكافا من كل ما لا يعنيه وما لا صلة له بالدين، ولا يحمل نفعا عاجلا او آجلا، وكان يوصي بالتحصن من مثل ذلك كل من يختلف إليه ويتحلق حوله، ولا سيما الذين يقومون بجولات الدعوة، ويخرجون في الوفود التبليغية، وكان يقول ان الاشتغال بما لا يعني ومعالجة ما لا ينطوي على فائدة ما، يذهبان بروح العمل، ويضيعان ماء وجهه، وكان يعتبر الخوض فيما لا يتعلق بالدين لا من قريب ولا من بعيد، اضاعة للوقت، ويدل على ذلك ما اتفق لي معه، فكنت انا - مرة - نستمع - وانا في لهفة وحنين - إلى ما يقص على السيد رضا حسن (١) مما جرى له في جولته الدعوية الواسعة الطويلة المدى التي قام بها في فترة من الوقت، فإذا بنا يرانا الشيخ - وقد سمع ما قص علينا رضا حسن - فيقول : «ان ذلك عرض للتاريخ، واعادة لذكرى الماضي، فالافضل ان تخوضا في حديث غيره يفيد كما فيما يأتي».

وكان يقدر الوقت حق قدره، وكان يؤله ان تضيع لحظة في غير موضعها، يدل على ذلك ما شهدته، وهو جالس يسمع الرسائل والكتابات - وكان يضعها في غلاف - فإذا الغلاف الذي قد سمع ما فيه يعترض له، ويخرج القارىء منه رسائل ويعيد قراءتها، فيدرك - بعد ثانية أو أقل - إنه قد سمعها، فيقول - في اسلوب فيه شيء كثير من الحسرة «خرقها كي لا تضيع وقتي مرة اخرى، فانه رأس مالي».

ولا ادل على تقديره للوقت ، واستغلاله في معنى الكلمة، ووضعه في موضعه مما قام به من العمل الجليل الذي لم يعد خافيا على العالم، ان مثل هذا العمل ذا الأهمية القصوى يحتاج القيام به إلى استغلال كل لحظة، وانتهاز كل فرصة، والضن بكل آن وثوان على ضياعها في غير موضعها.

قد عرّف الشيخ مرة «العشق» فقال: هو ان ينحصر كل لذة الانسان في شيء واحد، وينحسر كل ما فيه من معاني الغرام والوله في ذاك الشي» هذا هو «العشق»، وقد انطبق عليه «العشق» هذا كل الانطباق فيما يتصل بالدين فقد عشقته روحه عشقا تغلّب على كل لذة في الحياة، فاصبحت كل امنية بعده شيئا لا معنى له لديه، وأضحت تلك اللذة الروحية والمعنوية عنده لذة محسوسة ملموسة فكانت تكسبه من القوة والانتعاش، والنشاط والحماس، ما لا يكسبه احدا الغذاء والدواء، فكتب إلى احد ممن شكا إليه القلق النفسي الذي كان يغالبه لدى قضائه لوقته في بيته بعد ما بذل القدر الكثير من وقته في نشاطات حركة الدعوة والتبليغ، كتب إليه ما ان كان لا ينطبق على احد حتى المكتوب إليه فانه سينطبق عليه كل الانطباق.

«صديقي الموقر ان هذا العمل - عمل الدعوة والتبليغ - بمنزلة الغذاء لروح الانسان، وقد اغدق عليكم الله هذا الغذاء بمجرد فضله وكرمه، ومن ثم فالقلق والاضطراب - اللذان تعانون منهما في هذه الأيام - نتيجة حتمية منطبقة لفقد هذا الغذاء او لقلته، ولو لوقت قصير محدد، فلا يحسب لذلك حسابا، ولا تقلق له بالا».

وطالما رأيناه قد نسي مرضه، وتجددت فيه قوة انهار امامها كل ما كان فيه من المرض، حينما سمع خبرا سارا عن نشاطات التبليغ، أو قابل رجلا توسم فيه صلاحية الأفادة لمهمة الدعوة، وبالعكس من ذلك اشتد مرضه، وازداد حزنه كلما سمع نبأ مقلقا، فكأن كل آلامه تجمعت في ألم واحد، يقول في كتاب له:

«أنا بخير - والحمدلله - الا الألم الناجم عن التفكير في الدعوة، وسبل توسيع نشاطاتها وتصعيد تحركاتها».

وانحسرت نواحي شعوره، فتركّزت على شيء واحد، وهو الدعوة - والدعوة وحدها - وسمعناه يقول: ان كثرة الاشغال ربما تجعلني افقد الشعور بالجوع، وحينئذ فإنما آكل لأني اكون قد تحلّقت مع المتحلّقين حول الطعام، أو لأن مواعيد الأكل تكون قد حانت.

وتسره الكتابات والانباء عن نشاطات التبليغ سرور رسالة العشيق للعاشق الصادق الهائم الذي طال به الهجر وبرّح به الشوق، يقول في كتابه له إلى عامل في حقل الدعوة كان يكتب محضر نشاطات التبليغ في فترة من الوقت:

«ان تصور كتاباتكم يفعل في ما تفعله الروح في الجسد، وان لم أصدق في قولي هذا مائة في المائة، فبالتأكيد ليس ذلك مجرد كذب أو مبالغة، لأن كتاباتكم لأكرم عندي من نفسي، فاياك وان تهمل في توجيهها اليّ».

وكان انتظاره لرجوع وفود الدعاة الذين كان يوفدهم إلى مختلف الأرجاء احلى لديه من انتظار هلال العيد، فيكتب إلى عضو من اعضاء «جماعة التبليغ» كان كرئيس لوفد:

«ان بعثة الدعاة التي سترد الينا عن طريق شواطىء نهر «جمنا» انتظرها انتظاري لهلال العيد، فأت بها بكل اجلال واكرام»، ويبلغ من تركيز عنايته على حركة الدعوة والتبليغ مبلغا قد لا يتحمل فيه «ثقل» السرور البالغ، فمرة رجع وفد الدعاة المكون من أهالي مدينة «لكهنئو» من مدينة «كانفور» إلى مقر حركة الدعوة في «بستي نظام الدين» في « دلهي الجديدة» وكنت احد اعضاء الوفد فقال لي يوما بعد صلاة الفجر - وهو يستفسرني - : «ربما يكون قد توقف نشاط الدعوة في مدينة «كانفور» بعد ايابكم منها؟»، فقلت: ان النشاط مستمر، والعمل ماض، فقد ناب عنا وفد آخر من أهالي «لكهنئو» وخلال هذا الحديث اشرت إلى رجل كان معي في هذا الوفد الراجع، فبادر إليه يصافحه ويقبل يديه ثم قال: إنه قد جر السرور «الغامر» إلى رأسي صداعا فلا تغمروني بما لا أطيقه من السرور، فقد بلغت من الشغف ان اصبحت لا اتحمل «مفاجئات سارة».

وبالعكس من ذلك، ربما كان يلحق به المرض أيما اهمال أو حيد عن المبادىء او قلة عناية يراها في وفود المبلغين، فقد حضرت مرة «بستي نظام الدين» فقال لي مرضت بعد رجوعي من «سهارنفور» فسألته عن السبب، فقال: هو عدم التزام الوفود للمبادىء، وعدم اكتراثها بالغايات فقد يخوض القوم فيما لا يعنيهم، من التفرج في المدينة، والتسكع على الشوارع والتجول الفارغ في انحاء المدينة وحاراتها.

ويدل على هذا الحماس والشغف البالغين المقتطفات التالية من رسائله إلى كاتب هذه السطور:

«لابد أن يخرج رجال يحسنون التضحية بأنفسهم وأموالهم في هذه السبيل، دون ايما تلعثم وتردد، فقد أن أوانه، ولا مبرر لأي تخلف هناك».

«لو ذقتم الجنة ونعيمها في هذه الدنيا الفانية، لو ركزتم جهودكم على هذه الغاية الكريمة مؤمنين بمفهوم: «ان الله لا يضيع اجر المحسنين» ومتمنين ان يدعوكم الناس «مجانين» معتبرين ان الفناء في هذا السبيل وفي السعي وراء هذا الغرض النبيل، هو البقاء في معنى الكلمة.

وقد تكيفت حياة الشيخ بهذه الكيفية، فكان يجد لذة الجنة في هذه المساعي، كانت السموم اللافحة في هذا الطرق اشد انعاشا له من النسيم العليل في الصباح، فقد كنت انا وهو والشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي، والشيخ اكرام الحسن (١)، في الطريق إلى حارة «قطب» في «دهلي» وكانت السموم تلفحنا من نوافذ السيارة التي نركبها فأشار الشيخ محمد الياس باغلاقها، فقال الشيخ محمد زكريا: نعم، ان السموم حارة لافحة الآن، ولو كانت في سفر دعوة وتبشير وجولة دعوية لكانت باردة عليلة، فقال: «نعم، ولا شك».

وكان يتمنى لكل من يتوسم فيه الفضل والكمال والموهبة والصلاح، والكياسة والعبقرية والذكاء والفطانة، والخبرة والتجربة، يتمنى ان لو ركزت هذه كلها على المحاولات التي تبذل في سبيل الدين والدعوة، لأنت بأينع الثمار.

لم أر عند أحد ما رأيت عنده من الأضطراب والتألم والزفرات والانّات، ولا يكاد يتصوره من لم يعاشره، فربما وجدته يتململ تململ السمك خارج الماء، وكثيرا ما كان يتأوه ويقول: رب ماذا اصنع وأرى السعي يضيع ويذهب سدى؟، وكثيرا ما كان يجعله هذا التوجه والتألم يتقلب على الفراش لا يقر له قرار حتى ينهض ويتمشى، ومثل ذلك كان يعاني منه ذات ليلة فقالت له زوجته: ما الذي اطار النوم من عينيك واقض مضجعك؟ فقال حبذا لو فهمت ذلك؟ وحينئذ ستعانين مما أعاني منه، وهنالك فسيكون المحروم من النوم اثنين. وطالما كان الناظر إليه يرق له فيواسيه ويطمئنه، واحيانا رأيناه يتحدث فنشعر كأن قلبه تنور يشتعل نارا، وكان يتدفق عاطفة وحمية وغيرة تدفق السيل العارم، مما كان اللسان قد لا يطاوعه، والكلمات تتكسر عليه، وربما يفصل خواطره، ويطيل الكلام، ثم ينشأ يتغنى البيت الأردي السائر للشاعر الأردي الكبير «أسد الله خان غالب» بتعديل خفيف:

«اني مجنون أثرثر ما أثرثر، غير أن في هذه الثرثرة فوائد نفيسة ونكتا دقيقة فليفهم الناس ولو بعضها».

وقد يفتر عن الكلام مخافة ان يكون قد سئم بعض السامعين، الا إنه يتغنى بلسان حاله الشعر الفارسي الذي اكثر من سوقه الشيخ الكبير احمد بن عبدالاحد بن زين العابدين السرهندي (المعروف بـ «مجدد الألف الثاني) في ختام الشيء الكثير من رسائله:

«إنما اطوى حديثي عن الألم والهم اللذين يعاني منهما قلبي خشية ان تسأم والا فان الحديث طويل».

كل ذلك يدل على السر وراء اطلاق الكفار والمشركين لكلمة «مجنون» على الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه - ويزيح اللثام عن سر تكرير الله سبحانه وتعالى لأمثال قوله: «لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين»(١)، وان مثل هذا القلق والاضطراب ليعطينا صورة يمكن ان نقدر في ضوئها تلك الكمية الكبرى التي كان يتمتع بها اسلافنا العظام من التململ والتألم من اجل بؤس الأنسانية عامة وانحطاط المسلمين وضعف العقيدة والدين خاصة، ذلك الذي يجعل مجدد الألف الثاني يخط بقلمه مرات:

«وا ويلاه، واحزناه، وامصيبتاه! ان محمدا رسول الله - وهو حبيب رب العالمين - اتباعه يعانون الذل والهوان والصغار واعداؤه يتمتعون بالعز والمنعة والاعتبار».

انه كان يتوصل - بعد المقارنة بين كمية المساعي التي تبذل من أجل اعلاء كلمة الله وبين شدة الحاجة إلى هذه الحركة - حركة الدعوة والتبليغ - إلى ان هذه الكمية اقل بكثير وكثير مما تحتاج إليه امثال هذه الحركة، فكان يخاف ان يؤاخذه ربه على هذا التقصير والاهمال في اداء الحق الذي عليه وذلك يسبب له الألم المضني، يقول في رسالة إلى كاتب هذه السطور:

«اين المحاولات التي ابذلها، والصوت الذي ارفعه، من المسئولية الضخمة التي تعود على من قبل الدعوة، والتي أرانيها الله سبحانه وتعالى، فان عاملني هو باللطف والكرم فذلك شأنه، وان عاملني معاملة العدل فلا سبيل إلى النجاة».

وكانت ضآلة المحاولات الدينية التي تنفق من اجل مكافحة الفتن السوداء وسيل الألحاد واللادينية العارم الجارف، وتيار الاباحية العاتي في العصر الذي يعيشه يسبب له الكآبة البالغة، كلما يوازن بين الضعف وقلة الجهود وقوة الفتنة وسرعتها، وينتهي به ذلك إلى ان قد لا يسره ولا النبأ السار عن المجهودات والنشاطات، يقول في رسالة إلى الأستاذ عبدالغفار المجددي الندوي:

«منذ أيام تسلمت رسالتكم وكان عهدي بها من قبل أن تهبني الشيء الكثير من النشاط والانتعاش والسكينة والطمأنينة لكن الفتنة المظلمة التي تسلب الأيمان والعقيدة والتي تقضي على الشعور الديني والوعي الأسلامي اسرع - زميلي الموقر - بكثير وكثير من «سيارات البريد» وبالعكس من ذلك هذه الحركة - وهي الشيء الوحيد الذي يمكنه ان يقاوم هذه الفتنة مقاومة فعالة - ابطأ بقدر ذلك حتى من النملة، وبالتأكيد ان هذه الكمية الضئيلة من الجهود سوف لا تسمن ولا تغني من جوع بالقياس إلى سرعة الفتنة وتمكنها وتأصلها.

حينما كانت بعثات الميواتيين تخرج للجولات، فكانت تسر الناظرين إلى عددها وعددها من الهمة والعزيمة، والارادة المحركة، الا ان القلب الكئيب الحزين الملتهب في صدره كان يريد اكثر من هذا، وكانت بصيرته النافذة تنفذ إلى قلوب الوفود، فتحسسها، فتعود حزينة كئيبة، كلما تجد شيئا ما من الخور في العزيمة والفتور في الارادة او ما يسمى بالزيف في النية، من الشوق إلى العودة، والحنين إلى الأهل وما

إلى ذلك، وحينئذ فتنقلب كل مسرته حسرة.

يقول في رسالة يتحدث فيها عن الأنباء السارة عن نشاطات التبليغ والدعوة :

« قد وصلتني رسالتكم التي تصف نشاطات حركة الدعوة والتبليغ، وتفيد ان وفدا مكونا من ٨٠ رجلا قد وصل إلى هناك، وأن وفدا آخر يتألف من ٢٥ رجلا على وشك الخروج في رحلة دعوية، فالحمدلله ثم الحمدلله، فان ذلك لمن مجرد كرمه وفضله، ومن نعمه الجليلة ومنته الكبيرة، أن قد عقد ٨٠ رجلا النية على الخروج من وطنهم من اجل نشر الدين واصلاح العقيدة في هذا العصر العصيب الذي اشتد فيه الأستخفاف بالعمل في حقل الدعوة والارشاد، لكنه بجانب الشكر لله العلي القدير يطلب دقة وخطورة الموقف منا وقفة متأملة: وقفة نتمكن فيها من تدقيق النظر ومراجعة الحساب، فسندرك ان هذا القدر اقل من القليل بالنسبة إلى هذه الكثرة الكاثرة الهائلة من الشعب المسلم، ويزيد الأسف والحسرة النظرة المتفحصة في هذا الزهد في النشاذ والحماس بجانب هذه العزة والبركة وانواع السعادة التي تجليها هذه الحركة الكريمة، والتي تتضح اتضاح الصبح لذي عينين، ويضاف إلى ذلك الحنين الزائد إلى الوطن الذي يصعب معه الثبات والصمود، ولا يكادون يخرجون من وطنهم الا بعد تدابير كثيرة وحيل عديدة، وإذا ما تجذب الدار الفانية هذا الجذب العنيف فكيف يتم عمارة الدار الباقية الآتية، وبالتاكيد سوف لا تذوقون حلاوة الأيمان حتى تروح الأقامة في الوطن تصعب صعوبة الخروج للجولة الدعوية الأن ويكبر العودة إلى الوطن على النفوس كبر الخروج إلى التبليغ اليوم، وحتى تنهضوا لبذل الجهود الجبارة من اجل تعويد الشعب المسلم على بذل اربعة اشهر في الجولة وتركيز العناية البالغة على تعميق جذور هذا العمل الجليل في حياة الأمة المسلمة».

ويقول في رسالة اخرى:

«رفيقي العزيز (كيف اعبر عن آلامي المبرحة؟ ان هؤلاء لا يكادون يثبتون ولا عدة شهور، وانني اعتقد إنه سوف لا يستتب الأيمان في قلوبنا ولا تتأصل العقيدة في اعماق صدورنا، ولا نستطيع تمكين وتدعيم العلاقة بيننا وبين الدين التي ترمي إلى الحصول عليها، لا يتم كل ذلك، حتى يلزم كل واحد منا نفسه بالقيام بالجولة الدعوية، ولا اقل من ان يلزم كل بيت من بيوتنا أنه سيجهز واحدا من اعضاء اسرته تناوبا للخروج والغدو والرواح من اجل تشييد بيت الدين والعقيدة.

أليس ذلك غريبا - ياأخي - أو ليس يبعث الأسف العميق أن يتكالب كل من أعضاء بيوتنا على ما يتصل بالحياة الدنيا، ولا نكاد نرضى أن نتصدق علي الخدمات الدينية والنشاطات الدعوية ولا برجل واحد ! .

وربما يواجه قلقا واضطرابا حينما يريد أن يعبر عن معنى دقيق فلا يجد من الألفاظ ليفصح عن مشاعر، يقول في كتاب :

ان هذا العبد الضعيف لفي وضع محير بشأن هذه الدعوة، حتى ربما أكون لا أقدر على التعبير عما

يجيش في الصدر.

ويختتم رسالة له تحدث فيها عن المجهودات الدينية والسعى وراء نشر الدين ووصفها بأنها هى التى تستطيع أن تدفع البلاء، وتحيى العزم، وتحرك الارادة، أما أن نعيش الحياة المتجردة عن الحراك والجهد للدين ونتوقع انكشاف الكربة، وانجلاء البلاء عنا، فذاك وهم وجنون، وتصور خاطئ كل الخطأ بهذه الكلمات !

انه بما قد أصابنى قلق واضطراب لدى إملاء هذه السطور فانى أكتفى بهذا القدر

وانه لمن فضل القلب الكبير الشجاع القوى الذى كان فى صدره أنه - بجانب هذه الحرارة، وهذا القلق والاضطراب وهذا الألم المضنى ظل دائما متهلل الوجه، سمح النفس، ضاحك الجبين، يتبسط مع الناس فى الكلام، يكرم الضيوف ويباشر الأعمال العادية، وإلا فان الشعلة المحرقة الملتهبة فى صدره منذ زمان لو انهكت قواه، وأضنت عقوله، وعطلته من الأعمال، لما دب الينا العجب.

تحمل متاعب فى سبيل الدعوة :

قد جرت العادة بشأن نشر الدين والدعوة إلى الخير، على استخدام البيان والبنان، والقلم واللسان، أما مزاولة التجوال والترحال والجولات والرحلات، واعارتها كبرى الأهمية والدرجة الأولى للحصول على هذه الغاية، والاعتقاد بأن الحاجة بهذا الشأن - أشد إلى الحركة العملية منها إلى حركة القلم واللسان ، فإنما يرجع الفضل في ذلك - فى عصره - إليه، وشرح الله لذلك صدره شرحا تاما، فكان يوصى بالصمود على هذا المبدأ ويدعو الله لذلك ويستدعى الصلحاء من عباده، يقول فى رسالة له إلى الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى:

... انى لأ رجو منك رجاء نابعا من الأمان ومن أعماق القُلب أن تدعو الله بكل اهتمام أن يجعل هذه الحركة التى قمت بها، حركة عملية في معنى الكلمة، وألا تخدش ولا تقلل كثرة الاقوال من عمليتها ولتقتصر الخطب والأقوال على قدر الحاجة، وما ذلك على الله بعزيز .

وكان يقول: إن إثارة الحنين فى القلوب إلى التضحية بالنفس، فى سبيل اعلاء كلمة الله، والشعوربأن بذل النفوس والارواح متاع رخيص جدا فى هذه السبيل، ذلك هو جوهر حركتى، وتلك هى الغاية التى نرمى إليها..

وقد تجشم منذ اليوم الأول - على الرغم من الضعف الناتج عن تقدم السن - فى الرحلات الدعوية ولا سيما فى منطقة ميوات من المشاق والأعباء، ما لا طاقة به للشبان من أولى الجلادة والقوة، وهذا التفانى فى السعى وراء المقصد الشريف هو الذى ربما كان يفقده الشعور بالجوع والعطش فضلا عن النوم والاستراحة، فيتداخل الليل والنهار، وتمضى ليال وأيام دون أن يمس شفتيه ذواق، وربما مضت عليه ست وثلاثون ساعة وهو جائع، وطالما خرج من نظام الدين صباح أو مساء يوم الخميس أو صباح يوم الجمعة

فلم يأكل ولم يشرب الا بعد ما رجع إلى نظام الدين يوم الاحد .

سهر الليالي الطوال، وعبر الجبال، وقطع أشد الطرق، وصبر- في شهر مايو ويونيو- للسموم اللافحة في صحارى ميوات اللاهبة وللقر القارس - في شهري ديسمبر ويناير- للنفحات القاتلة للرياح الزمهريرية في المناطق الخالية والميادين المجردة .

وهناك رحلات إلى ميوات قام بها في شدة من الحر، وضعف في الصحة، قل معها الآمل في الحياة وكثر عليها الخطر من الموت، غير أنه عد هذا الخروج في سبيل الله خروجا إلى الجهاد وأرض ميوات ميدانا للجهاد، فأقبل إليها دون اكتراث بالأخطار والاعباء

يقول في رسالة له إلى الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي المؤرخ ١٦ مايو ١٩٣٦ م :

قد انتهى بي الضعف إلى أن الحديث إذا كان ملتويا غامضا يختلج في صدري، ويخفق منه قلبي وتتبوعنه نفسي، حتى يعز على السفر إلى دلهي في سيارة مريحة، غير أني رغم ذلك كله، و الحمد لله عزمت على القيام بجولة ستستغرق شهرا كاملا، متأكدا من أني ساكون غرضا للسموم اللافحة ولأحاديث جهلاء ميوات التي تكون غاية في الغموض والالتواء، فحاولت أن أخاطر بنفسي وتصورت هذا الخروج خروجا إلى الجهاد، فكأني مصمم على الخوض في الجهاد لكن أخوف ما أخافه هو ضعفي وفتور همتي، وأخشى نفسي الباغية أن تتولى عن مواجهة الشدائد والمشاق منهزمة خاسرة خائبة، فادع الله جل وعلا أن يرزقني الصبر على المكاره ما دمت حيا- وما ذلك على الله بعزيز- أو يوفقني لتحقيق الهدف وإحراز النجاح فأعود سالما غانما، فاني أحسب هذه الرحلة أهم مسئولية في عنقي، وأحسب الالتفات إلى الصحة والضعف أشد معصية أقترفها وها أنا ذا أقدم على السفر على يأس من الحياة.....

وكانت هذه الرحلة بعربة يجرها الثوران، وكانت الطريق تتداخل الجبال في موضع يقال له كلتاج بور وأخذت العربة تصعد الجبل فانقلبت واصطدم الركاب ، ثم صعدوا، وهم مكدودون مجهودون مغبرون قد خلع الصعود أضراسهم، وكان والوفد يتكون من بعض أولئك العلماء الذين لا عهد لهم بهذه الأعباء، فبادرهم الشيخ...قبل أن يشكو ما لقوه من المتاعب والشدائد- وذهب بهم مذهباآخر، قائلا : زملائي ان هذا الصعود الذي هو شبه صعود على حراء، إنما سعدتم به لأول مرة في الحياة- ولكم الله- أخبروني كم مرة واجهه النبي صلى الله عليه وآله وسلم - في حياته السعيدة « ؟ فيأأسفي على هذا الحرمان والتقصير! ، فمن كان لينبس بشكوي بعد ذلك ؟

وإذا ما عزم على شئ فلم يحل دونه ودون تحقيقه شيئ، ومن ثم فكل شيء عنده ممكن مستطاع الاما شاء ربك، وأما كلمة اليأس فليست تحمل لديه معنى، وإذا ما تذكر شيئا يريد تحقيقه عزم عليه ونفذ ارادته مهما كان الزمان والمكان.

فتذكر يوما أن هناك أمرا مهما فاته أن يأمر به أهل بلدة نوح في ميوات، فلا بأس بالوقت ولو كان هو الهجيع الاخير من الليل، فيمشي على رجليه من بستي نظام الدين في دلهي الجديدة ويدخل على الحاج

تسيم « ١ »

في بيته في دلهي القديمة، ويستعير منه سيارة يركبها، فتقف به في نوح والوقت وقت السحر، والناس نيام والبلدة ساكنة، فيشبع غرضه، ويصلي الفجر، ويأخذ طريقةإلى دلهي ..

والسفر مجهز إلى ميوات فلا حرج ولو أمطر السماء مطرا غزيرا سالت به الشوارع والمستنقعات والبلاليع، ولا حاجة إلى عربة الحصان ولوألح الناس، فليكن المشي على الأقدام لو كان الماء إلى الركبتين وقد صدق الشيخ محمد منظور النعماني حين قال في احدى كتاباته :

‹انه وان كان نحيف الجسم ضعيف البدن، يذل في هذا الفرض الشريف من الجهود المتواصلة والسعي الحثيث، ما لا يستطيع - على حد تقديري - المزيد عليه من تمثلت له الجنه - على حد الفرض - بآلائها ونعمائها وزينتها وزخارفها، وتجلت له جهنم بأهوالها وأخطارها ومكارهها ومتاعبها، وقيل له : إذا علمت بهذا دخلت هذه الجنة، وان أبيت أدخلت هذه النار « ٢ »

وأما رفقاؤه في العمل، فكان يعني بإراحتهم عناية ممكنة، ويوفر لهم أسباب الراحة ما يستطيعها ولا يكلفهم شيئا يكرهونه الا إذا اضطرته ضرورة ملحة، فيشجعهم على الجد والاجتهاد والتحمل .

فكان مرة في جولة تبليغية في ميوات ودعته حاجة إلى أن يعود إلى دلهي، فيتولى العمل بعض أعضاء الوفد فأوصاهم قائلا : عليكم بالجد والسعي، وعهد إلى الأعضاء الميواتيين بتوفير الراحة قائلا : وعليكم بالاجتهاد، في توفير الراحة والتسهيلات، ثم غادرهم وهو يقول : ان كان نصيبكم من الراحة فحسب فذلك هو الهزيمة :

وكان لا يريد ما يهيئ الله له من أسباب الراحة والنعيم، بل يقدره حق قدره، فيتمتع به كنعمة من نعم الله أكرمه الله بها، فلا يتكلف غائبا ولا يرد موجودا، وذلك هو كان مبدؤه المتبع طوال حياته.

أجل ... ولم يكن يتكلف المشقة والصعوبة والعسر إذا أنه كان يتشجع على الطموح وبعد الهمة، والعزيمة النافذة، في المحاولات الدينية، فكان يطلب إلى أهل ميوات الذين يخرجون في الجولات الدعوية أن يحافظوا على بساطتهم وعادتهم على الجد والكد، فان ذلك هو جوهرهم الأصيل، فسلام على التصنع والسهولة اللتين يعتادهما أهل المدن، فذلك هو نقطة ضعفهم وداؤهم العضال، فليفضلوا البساطة في المأكل والملبس، وليفضلوا النوم على سطح الأرض وليعتادوا تحمل الشدائد .

ويخاف أن يتأثروا بأبناء المدن عن طريق الأختلاف إليهم فيرغبوا في معيشتهم ذات الراحة والتنعم والسهولة :

وكان يقول : الانسان مجبول على تحمل الشدائد والصمود للمشاق : لقد خلقنا الأنسان في كبد فان لم يكن ذلك في أعمال الخير وفي سبيل الدين، فسيكون فيما لا يغنيه عند الله شيئا، كما نلاحظ ذلك في يومنا هذا فأين هذه البضاعة المزجاة من المجهودات والمشاق التي نتجشمها في سبيل الدين، والدين هو

الغاية الأساسية وفى أعمال الخير المثاب عليها فى الآخرة من تلك الجهود الجبارة الفخمة المتوالية التى يبذلها العالم المعاصر المجنون اليوم فى سبيل الأغراض التافهة والآمال والأحلام الموهوم تحققها ؟ !

وقال ـ وقد بلغه مرض أحد رفقائه ـ : إنه ليس شيئا ذا قيمة كبيرة أن يصاب أحد بالحمى فى سبيل الدين فى العصر الذى يضحى الرجل فيه بنفسه فى سبيل لقمة العيش ..

ويقول فى رسالة له :

«ان يكرمنا الله بسعادة الآخرة والقرب والاحسان حتى تكون كفة المجهود الدينى هى الراجحة وكفة المجهود الدنيوى هى الطائشة» ..

ويقول فى كتاب آخر ما خلاصته :

«ان رحمة الله تعالى تنزل بقدر انكسار القلب، وذلك بتحمل الشدائد والصبر للمصائب، والمتاعب، أنا عند المنكسرة قلوبهم .. والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .. وسوف لا يدرك المجد، ولا يكتب العز، الا بالجد والكد الا استثنائيا ـ والنجاح فى كل شيئ منوط بالاجتهاد فيه»..

وكان يحبذ ويقدر تقديرا بالغا، خطوة واحدة يخطوها أحد، ويستعظم تعبا يسيرا يذوقه رجل، نظرا إلى بعد العصر الذى نعيش فيه عن خير القرون وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى سقوط الارادة، والفتور فى الهمة، وهذا التقدير والتحبيذ هو الذى جعل أصحابه ومن حوله من أولى الهمم الفاترة، أصحاب طموح وارادة ماضية وهمة بعيدة، وأصبحوا يسرعون فى السير فى سبيل الغاية، يقول فى رسالة إلى كاتب هذه السطور وجهها إليه وقد أصيب بالحمى فى جولة تبليغية :

«... أود أن أحبذكم أن خروجا فى سبيل الله فى هذا القرن الرابع عشر الهجرى هو الذى تسبب فى مرضكم»:

هل أنت الا اصبع دميت   وفى سبيل الله ما لقيت

فليست هذه الحمى في ظاهرها الا الحمى التي يصاب بها كثير من بني البشر من حين لآخر، إلا انها تمتاز عن أخواتها لو رأينا أن السبب فيها هو السعي وراء فتح طريق للحياة لوتم هذا الفتح ـ ولو بعد تضحيات نفس ـ لتسنى لكل فرد من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ ممن حبستهم الأشغال والأعمال ـ أن يتمتعوا بحظ وافر من الرشد والهدى ..

ويقول فى رسالة أخرى :

.. ان هذا الدين ليست التضحيةبالأنفس والمهج فى سبيله شيئا ذا خطر، وإنما تستوفى قيمتها بعض الشيء عبرات غزار ودموع سخية، وتألم القلوب وتحرق الأكباد والصدور، ومن هنالك فان هذه الجهود الضئيلة وهذه الخطوات العدة ليست من الأهمية بمكان بالنسبة إلى ضخامة وعظم المسؤولية، الا أن

النظرة إلى رحمة الله ورأفته وعطفه وكرمه ، وإلى قوله تعالى: «لا يكلف الله نفسا الا وسعها»(*) تبعث الأمل الكبير،

وكان الشيخ يجمع بين التحريض وتأليف القلب، فيقدر كل عمل ضئيل وسعى قليل، ويأخذ حين التحريض بأقصى الناحية، ويلتفت بالناس إلى أبعد الغايات، ويضع نصب عيونهم أرفع الأعمال وأعلاها وأكثرها، حتى لا يزهوا ولا يتباهوا بما أتوا به .

علو الهمة :

أما الطموح وبعد الهمة فذلك جوهر حياته، ومزيته التى ينطلق بها واقع حياته، وتدل عليها أوضح الدلالة كتاباته واقواله وأعماله، والغاية التى وهب لها حياته ودعا إليها الناس لا تتفق ـ ولا بعض الشيئ ـ وما حوله من البيئات وكانت ترتفع جد ارتفاع على مستوى عقلية العصر الذى عاش فيه، ولذلك فكان يضن على الناس بآماله البعيدة وعزائمه العالية التى كانت تموج فى قلبه، وقلما كان يبديهما لأحد، عملا منه «..خاطبوا الناس على قدر عقولهم و استعينوا على أموركم بالكتمان» غير أنه يتوسم ذلك بعض من لديه أحيانا فى كلامه وكتاباته .

فقال مرة لأحد من ذويه ـ وهو الأستاذ ظهير الحسن « ١ » ـ... ياأخى ان هؤلاء لا يكادون يدركون ماذا أريده من وراء محاولاتى، وهناك أناس يفهمون أن هذه الحركة ـ حركة الدعوة والتبليغ ـ حركة اقامة الصلاة فحسب، لا والله ليس الأمر كما يفهمونه ..

وقال يوما فى صوت فيه غاية الحسرة :

« أخى ! ظهير الحسن ! أود أن أجعل من هؤلاء الناس أمة جديدة »

فهذه الحركة لم تكن عنده كحركات طارئة ـ وما أكثرها ـ تثور وتهدأ ، ولو بعد قرن أو قرون، وإنما كان يريدها حركة ماضية إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها تعمل عملها، وتحيى ما يموت من الدين وتجدد النشاط، وتبعث الحماس، وتقطع اليأس، وتربط بالله الناس .

يدل على ذلك مقتطف من رسالة له إلى كاتب هذه السطور، يقول فيها :

«... تلقّيت كتابكم الكريم الذي شمل المجلس بالشيء الكثير من الفرح والسرور، بما حمله من الأنباء السارة ـ جعلها الله صادرة من صميم الواقع ـ ولندع الله أن يجعل هذه الحركة ـ بفضل قدرته التي بها وحدها جعل السماوات السبع والارضين تقوم بغير عمد ترونها ـ حركة ذات عمر طويل، فلا تكون كالماء يفور فورانا، ويفيض فيضانا ثم يهدأ، ولا تكون سطحية عابرة، فتبرد بعد مدة، ولتكن محكمة البناء، مركزة الأجزاء».

وكان يود أن لا يواكب هذه الحركة الدعوية ما يجعل الناس يفهمون انها تختص بشخصه، وتدور

* خواتم البقرة

بادارته وستموت بموته، فلا يسعى لها الناس بعده، ولذلك فكان يدعو إليها العلماء على اختلاف وجهاتهم واتجاهاتهم، حتى لا تفهم حركة شخصية، ويرفض أن تنمى إليه، بل كان يريدها حركة عامة شاملة يسهم في السعي لها، ويبذل المحاولات فيها، كل المسلمين أيا كانوا.

ولا يسره خروج عدة مئات من الرجال إلى الجولات الدعوية أو إلى الرحلات الدراسية، أو إلى طلب العلوم الدينية، وكان يتمنى أن يأتي الوقت الذي يرى بأم عينيه خروج مئات الآلاف من الرجال بل ويكون ذلك جزءا من حياتهم لازما حتى يعودوا لا معدى لهم عن ممارسته.

ولم يكن عنده من الأهمية بمكان أن تحدث تحولات اسلامية في اخلاق وعادات أهل «ميوات» فحسب، او الشعب المسلم في أية قطعة من الأرض، اذ كان يود ان لو وفق ليبدل لغة البلاد بأسرها بالاخرى، وهي اللغة العربية لا غير، وانه يعتقد ان جهود الانسان لو حالفها التوفيق، وسعدت بعون الله، تجعل كل شيء في الحياة ممكنا مستطاعا، بل ومحققا مجسدا.

وكان يود احياء اللغة العربية ولا سيما في اوساط المدارس العربية الدينية في الهند، فيقول في كتاب إلى كاتب هذه السطور:

«... هناك افكار وعواطف تزخر في صدري لا ابرح بها لأحد، ظنا مني ان ذلك لم يأن أوانه الا اني لارجو منكم امعان النظر فيما إذا كان من الممكن الزام تلاميذ المدارس العربية - في جولاتهم الدعوية ورحلاتهم التبليغية - باللغة العربية في التحادث».

ثم احيط به علما بأن ذلك قد جرب فعلا في الجولات الدعوية التي كان يقوم بها طلبة دار العلوم الثالثة لندوة العلماء تحت اشراف الأساتذة، ودخل مشروعه في مرحلة العمل مكللا بالنجاح، فكتب الي في غاية السرور:

«... قد سرني جد سرور احياء اللغة العربية، ادعو الله ان يجعل ذلك يستقطب عناية رجال المدارس العربية الأخرى إلى ذلك فينهجوا هذا المنهج».

وكان بوده ان تتخطى هذه الحركة حدود الهند، وتشمل مشارق الأرض ومغاربها، ولا سيما الأقطار الاسلامية والبلاد العربية، وقد خطط لذلك تخطيطا دقيقا، وكانت عواطفه الجياشة قد علقت آمالا بعيدة واماني نبيلة على هذا العمل الشريف وآثاره وثماره وبركاته، وقد يبدي بعض هذه الآمال بلهجة فيها الشيء الكثير من مزيج الحماس والتألم، والتوجع والتأسف، فلم تكن قائمة اللاامكانات (المستحيلات) عنده طويلة بالقدر الذي يفترضه افتراضا فاتروا الهمة فاقدوا الأمل، فكان يبذل محاولاته صادرا عن ثقة لاثقة بعدها ويقين لا يقين بعده، كما كان يدعو الله كذلك دعوة مومن بالاستجابة وبمحالفة التوفيق، وانفتاح الطريق ولا يستبعد شيئا عن رحمته الشاملة وقدرته التي احاطت بكل شيء، وعونه الذي ينتظر كل مستعين، يتجلى ذلك في رسالته إلى الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي، التي هي الدليل الواضح على عاطفته المتحمسة، وأمله العميق:

«... اني اسألك بكل الحاح وعزيمة، وبالله تعالى أن تتنازل عن حسبانك عمل الدعوة هذا من اللاممكنات أو الممتنعات، نظرا إلى قوله تعالى في حديث قدسي: «أنا عند ظن عبدي بي» ثم إلى «سعة القدرة الألهية»، فلتعتقد فيه أنه مما يتم بكل سهولة، زملائي! إنه لا ينبغي لأولى الأبصار أن ينظروا في امور الحياة إلى عجز المخلوق، وتعقد الظروف والاوضاع، تفاديا من النظر إلى قدرة خالق السماوات والارض، مكور الليل على النهار، وأن ينظروا في الأسباب المطلوبة، بدلا من أن ينظروا إلى الخطابات الالهية المشجعة، ان سنة الله الأزلية تنادي بأعلى صوتها أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويعطي ما يسأله، ويحقق كل ما يرجوه، فماذا يمنع ذوي الفطانة امثالك أن يسألوا الله - مسألة الحاح والحاف - التوفيق لتحقيق ما أراده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وتريده الشريعة، وسامحني فاني ربما يجعلني «جنوني» هذا لا اتمكن من مراعاة مكانة ذي الجاه الكبير، والمنصب الخطير، فأرجوك اعمال العفو العريق والارفاد بالدعاء إلى المولى الكريم.

والأسف كل الأسف أن «العزيمة الماضية» و«الهمة النافذة» التي يعبر عنها رجال التاريخ - إذا ما تتصل بالحاكمين والفاتحين » بـ «عزيمة الفاتحين» وارادة الحاكمين» فتتضخم وتتفخم، لكن يعبر عنها القوم إذا توجد لدى رجال اليقين والاخلاص والاحسان بأحوال «الجذب» و«الكيف» فتصغر وتتهون، ولا غرو فقد تعوّد الناس منذ قديم على التعبير عن شيء لم يكتهنوه بالاحاجي والاساطير.

الغيرة الدينية :

وقد أودع الله فى طبعه غيرة على الدين زائدة لا تحسن وصفها الكلمات، فقد كان السبب المباشر فى تألمه وتوجعه، وقلقه واضطرابه - ذلك الذى يدعه لا يقر له قرار، ولا يهدأ له حال - وفى تأسيسه حركة الدعوة والتبليغ، هو هذا الانحطاط الدينى الملموس، لقاء غلبة الكفر، وقوى الشر المتزايدة، الأمر الذى كان تأباه غيرته القوية على الدين ووعيه الأسلامى الصحيح، الا أن الأستراتيجية الحكيمة التى جعلها نصب عينيه - بتوفيق من الله يوحى من بصيرته الوقادة وتعمقه فى الدين - العمل الاسلامى والخدمة الدينية، كان لا يحب أن يغيرها أو يعدلها بعض تعديل انطلاقا مع العاطفة المتوقية الثائرة .

وربما كان يتحمل أشياء تتنافى مع طبعه الغيور الحساس، كأنه لم يشعر بها، بما أوتى من قوة الأحتمال والصبر على المكاره، الا أنه قد تفيض كأس الصبر بقطرات، وترتفع شعل من الجمرة الملتهبة فى صدره، فتدلنا على مدى الغيرة الهائجة الكامنة فى قلبه .

وقد سألته - انا - ذات مرة - كاتب السطور - ونحن نمر بالقلعة الحمراء التى بناها الملك المغولى شاهجهان فى دلهى : هل زرت القلعة ؟ فقال ان هذه القلعة عندى تدل على فقدان الغيرة الدينية، الا انى زرتها فى صباى حينما كان الدليل يطوف بالناس عليها وفى أنحائها وعيناه تذرفان .

وهنالك فى الهند اختبارات فى بعض العلوم العربية والاسلامية، تمنح الجامعات الرسمية العصرية الفائزين فيها شهادات، توفر لهم امكانات الوظائف فى المناصب الحكومية .

وكان الشيخ يتأذى من تلك الاختبارات كثيرا، كان يقول : ان هذه الإختبارات تحدث تحولا كليا فى النسبة وتربط حملة هذه الشهادات بالمادية وبالدنيا وبحطامها، على حساب العلاقة بالدين وبالله وبالرسول وبالتالى تذهب برواء وبركة العلوم والفنون التى يمتحن فيها هؤلاء وقد يكون المختبر بالكسر - فى هذه المواد العربية والإسلامية من لا يرعى للاسلام وأهله إلا ولا ذمة، وعنده رصيد ضخم من الحقد والعصبية ضد الإسلام، وضد هذه العلوم لمن ينتمى إليها .

فكان يعز على الشيخ أن يكون المسلم متطفلا على مائدة الأجنبى فيما يتصل بالعلوم العربية والاسلامية، يقول فى رسالة له إلى أحد من الغيارى من المسلمين :

«أخي انى لا غار أن يكون هناك رجال يكفرون بالله ورسوله، يمتحنون المسلمين فى العلوم العربية، وكان يعتبر بعض معاصريه الذين كانوا فى الواقع مصداقا لقوله تعالى: «أشداء على الكفار»(*)... إما ما فى البغض فى الله » ويقول : ان هذا الخلق حقيق بأن يكتسبه كل مسلم ..

وكان عزيزا عليه الصبر على انكار لحكم من احكام الشريعة أو عيب عليه، أو استخفاف به، فما هو الا ان كان يثور وينبض ويفور عرقه «الصديقى » على مثل هذا الانتقاص والوضع عما يتعلق بالدين ولا تحول دون الأنكار على ذلك والتنديد به مصلحة أو غرض، فقد ركز عناية كبيرة على مقاومة حركة الإلحاد التى كان يقودها بعض الهنادك المتعصبين المتحمسين، ولذلك فلم تنجح تلك الحركة الالحادية فى منطقة ميوات .

حرصه الشديد على اتباع السنة :

وكان لديه من الحرص الشديد على اتباع السنة ما يندر وجوده فى يوم الناس هذا، ذلك الذى كان يذكرنا بأسوة الأئمة السلف الصالحين، ومدى عنايتهم بهذه الناحية، وكان مطبوعا على أن يتبع حتى من السنن الصغيرة مالا يحسب القوم له حسابا، ولا يلقون له بالا، أما المواظبة عملا وقياما بها، والسعى وراء إحيائها ونشرها، وترغيبها وتحبيبها إلى الناس، فله فى ذلك دور أى دور .

فدعا الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى فى آخر يوم من حياته - وهو أشغل يوم فى حياة الانسان - وأكد عليه الوصية أن يتبع ويتقصى من دواوين السنة ومجاميعها كل جزء يتعلق بحياة النبى الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم سواء كان من الأعمال أو الأقوال أو الأخلاق والعادات، وكرر عليه التأكيد أن ينفق فى نشره وترويجه ما يستطيعه من الجهد، وما يمكنه من السعى، وما يملكه من الوقت .

وأما الذين لم يشهدوا حين ذلك، فجعل فيهم - أحد المخلصين - وهو الأستاذ عبد الرحمن - ولى الوصية بذلك، وأناط به مسئولية ابلاغ رسالته إلى الذين لم يتلقوا رسالته مباشرة التى تتضمن تاكيدا أى تأكيد على اتباع السنة وعلى أن ما اصطلح عليه الفقهاء ورجالات الأجتهاد، وما صنفوه من أنواع وأصناف، وما فضلوه ورجحوه من الأحكام، كل ذلك حق، وله نصيب من السداد، الا أن كل ما ينتمى إلى النبى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فلا بد من اعتباره ضروريا بالنسبه إلى العمل .

* سورة الفتح.

وهذا الحب الكبير والحرص الشديد على الاتباع والتأسى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم قد أثر بالاضافة إلى ناحية العبادات فى عامة عاداته كذلك، فكان يود أن يتأسى به صلى الله عليه وآله وسلم فى الأمور الطبيعية والشئون الأضطرارية، فكان يحضر المسجد خلال مرضه الذى توفى فيه متهاديا بين رجلين، اندفاعا وراء التشبه بهيئة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى حضوره المسجد فى مرض وفاته التى صورتها الأحاديث : فقام يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان الأرض، حتى كان يعز على الشيخ لو حدث خلاف ذلك يوما .

وان هناك لاتباع السنه منزلة دقيقه دقة قصوى وذات خطورة كبرى، وهى أن يتأثر الأنسان بالأحوال والحوادث البشرية العامة فى الحدود الشرعية، فكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يحزن طبعا بصفته بشرا، بالحوادث والعوامل التى تسبب الحزن، كما كان يتكيف بكيفية السرور والحمد والشكر فى مواطن السرور والغبطة، وقد ينشأ سوء فهم لبعض الناس فيفهمون أنه لابد لاكتمال الروحانية والربانية، وللترقى فى مدارج الكمال، أن يتحلل البشر من جميع الأحساسات والكيفيات والانفعالات البشرية، فلا يحزن أبدا من المحزنات، ولا يسر من المضحكات .

وهذا هو الشيخ السرهندى يعيب على شيخ جليل أعرب عن عدم تأثره من نعى وفاة ابنه، ولم يعر ذلك اهتماما، ولم يبد أى حزن يحزنه الثاكل، يقول السرهندى : إنه لما توفى ابن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم سمعه الناس يقول :

إن العين لتدمع، والقلب ليحزن، ولا نقول الا ما يرضي ربنا، وانا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون.

وأظن أنا أنه ربما ما بلغه نقد الشيخ السرهندى لهذا الشيخ، لكنه كتب إلى والده نفس المعنى، مما يدل على كمال اتباعه للسنة، وفهمه العميق الدقيق لروح الشريعة :

«...قد كتبتم إلى العزيز يوسف «١» كتابا يدل على عدم حزنكم فلتتذكر أن ذلك مما تنكره الشريعة، ولابد أن عوامل الحزن قد فعلت فيكم فعلها، الا أن ابداء التأثر من الحزن هو ضرورى كذلك وانكم بدوركم تعلمون جيدا أن كل حالة يصاب بها العبد من الله، لا بد من التأثر منها ثم الإعراب عن هذا التأثر :

وإلى المكتوب إليه نفسه كتب عند ولادة ابن له :

«..ان ذلك لنعمة كبرى من الله جل وعلا، لا بد من الأغتباط بها من صميم القلب، وان لم يتأت السرور طبعا وعفوا، وانطلاقا من القلب، فلا بد من اصطناعه، وابدائه شكرا لله العزيز القدير».

حلمه وتواضعه :

وكان غاية فى الحلم والأناة إلى جانب غاية إرهاف الحس، ورقة الشعور، وكم كان يشق عليه أن يسمع أو يرى شيئا لا يمس الهدف مسا، ولا يتصل بالغرض اتصالا، ولكنه يتحمل كل ذلك ليله ونهاره نظرا منه إلى طبيعة وخطورة العمل، الذى حمل عبأه، وادراكا منه أن ذلك العمل إلى المخالطة الشاملة

والاحتكاك بالناس أحوج منه إلى شيئ آخر، وظل يستخدم قوة احتماله، طيلة العمر، حتى فى المرحلة الأخيرة من حياته، أيام كاد يتملك عليه الضعف، والتفانى فى الغاية، هذه القوة : قوة الصبر والاحتمال .

فقد سمعنا أن رجلا من ذوى العلم والثقافة كان رفيقا له فى سفره، ولقى منه معاملة قاسية وسوء خلق واستخفاف به طول السفر فيتحمل ذلك بكل حلم، وهو يرى ويسمع، ثم قال مخاطباله :

«أفهل تظن أن غضبى يثور عليك على ما تفعله ، لا، كلا ! ان لغضبى قيمة ولا أضيع ماءه بوضعه فى غير مواضعه» .

خرجت مرة في بعثة دعوية إلى قرية من قرى الهند، وكان الشيخ رئيسها، فلما قدمت القرية أخذت تقوم بجولتها فيها، ووقف الشيخ فى مسجد القرية، وبعد ما أرضت البعثة حاجتها إلى الجولة، عادت ساحبة معها فتى من القرية إلى المسجد، وألفت الشيخ وهو يخرج من المسجد، فقدمت الفتى إليه قائلا : ان هذا لا يصلى ولا واحدة من الصلوات الخمس، ثم شكوت إليه استهزاءه بالدين، وفعلا قد جعل الرجل يضحك ساخرا من الشيخ على حساب الأجلال والاكرام، غير أن ذلك لم يثر فى الشيخ شيئا مما يسمى بالغضب أو السخط ، وإنما أثار الشيء الكثير من الشفقة والحنان فالتفت إلى الفتى، ووضع يدة على ذقنه داعيا له : أضحكك الله ما دمت حيا ثم وعظه بشأن الصلاة بأسلوب فيه كل البساطة، فرضى الفتى من ساعته، وتوجه إلى المسجد .

وفى جولة دعوية اتفق له أن وضع يده على رجل يدعوه إلى المساهمة فى الخروج لتبليغ دين الله، فاستشاط الرجل غضبا، يقول: لوعدت لمثله بعد لانهلت عليك ضربا بالعصا، فأخذ برجله يقول : انك لم تمنعنى من رجلك فهدأت ثائرته، وأصبح هينا لينا .

وكان فى رحلة دعوية، فلما أراد الرجوع إلى دلهى ركب على عربة يجرها ثوران لكى توصله إلى موقف السيارات، وكاد أن يحين موعد مغادرة السيارة التى توصلها إلى دلهى، فتقدم إلى الموقف رجال يستوقفها، وكان سائق العربة يسوق الثورين متباطئا، وكرر عليه الراكبون الالحاح ولكن بدون جدوى، ولم يقع من نفسه أى موقع، وظل كعادته يسوق بثناة، وقد وصلوا إلى الموقف فإذا بالسيارة، قد غادرت، فجعل رفقاء سفره يصبون على السائق من العتاب واللوم والزجر، ألوانا وأشكالا، وقد أدى الإسراف فى الغضب ببعضهم من الكلام إلى ما ليس من عادتهم، أما الشيخ فلم يزد على أن يقول : أخى ! ماذا عليك لو أطعت هؤلاء فيما كانوا يلحون عليك !

وكان من عادتة أن يغضب شديدا فيما يتعلق بعمل الدعوة، على من يتوسم فيهم الأخلاص المفرط ويدرك الصلة المتينة بينه وبينهم، حتى قد ينفجرون بكاءا، غير أن ذلك لا يزيدهم الا صلة به، واعتقادا فيه، واعجابا به، ورضا عنه، وقد سمعناه يقول : انى دعوت الله أن يجعل الغضب الذى أغضبه على أحد، رحمة عليه .

الشيخ محمد الياس فى ضوء رسائله :

كتب فى موضع :

يجب أن يخلص العبد سعيه فى اعلاء كلمة الله وتبليغ رسالته، منا بأن الله مولاه ناشدا لرضاه، مستعدا لما بعد الموت، فان الأجر الموعود من الله يتوقف على ذلك، ولم يدل على هذه الحقيقة الحصر الذى فى : أولئك يرجون رحمة الله «١» فحسب، بل تؤيدها ألوف من آيات كتاب رب العالمين .

وليعتبر العبد نفسه عاصية خاطئة، محفوفة بالاقذار والأضرار، مفسدة للأعمال، فان حقيقة رحمة الله شيئ لا يكاد يتراءى الا بعد عبور جسر الموت، ولذلك فيجب أن ينوى فى سعيه للدعوة ولتبليغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس، إن كل عبد من عباد الله ـ ويستثنى فى ذلك نفسه ـ هوصالح الطينة، شريف النفس فى حق ذاته، فكل ما يقوم به من عمل سيكون صالحا فى مظهره وحقيقه، فسيجعل الله له نصيبا من هذا العمل ببركة هذه النفوس الزكية، بحكم : (الدال على الخير كفاعله).

ويقول وهو يؤكد على التفكير، ليس التفكير شيئا يفوق الطاقة، فانه توطين النفس على أن هذا العمل «الصالح » سيرضى الله، وأن الموت الذى لا مناص منه ستصلح حياتك الشهوانية وأن يؤمن الخارج فى سبيل هذه الدعوة بكل ما يتضمنه : الدال على الخير كفاعله . ويعلق اليقين على كل ما سيؤتي من الأجر والثواب على الخروج فى هذه السبيل، كل هذا هو التفكير .

وكان الشيخ حريصا تمام الحرص على أن الذين يخرجون فى سبيل الله لاعلاء كلمته وتبليغ دعوته ورسالته، ما أحسن أن يسهمهم فى مهمتهم وأجرهم أعزاؤهم وأقرباؤهم، بابداء الرغبة والرضا، والتشجيع والتقدير، والاشارة والترحيب، وكان الشيخ يود لو أتيح له أن يوجد فى أبناء الأمة الأسلامية كلهاعلى اختلاف ألوانها وطبقاتها شوقا إلى الأجر والثواب، وحنينا إلى الأيمان والاحتساب .

واستهل هذه العمليه النبيلة من بيته وعشيرته، فقد وجه إلى أهل بيته من أرض الحجاز رسالة كتب فيها :

«أنظروا : كيف يترك الأنسان أهله وعياله لأغراض دنيوية لمدة لا تحصى، ثم انظروا : أن هناك كثيرا من أبناء الأسلام هم فى جنود الكفار، كيف يخاطرون بالأنفس والأرواح، ويقفون كل وقت على شفا حفرة من الموت لسد رمقهم وإشباع نداء بطونهم، فلا ينبغى لكم هذا التثبط، فوداعا لهذا الضعف فى الهمة والخور فى الأرادة، وارضوا بفراقى هذا فى خدمة الدين، بكل همة وعزيمة سيجعل الله لكم نصيبكم من هذا الأجر والثواب حسب رضاكم، واغتنموا أن أهلكم يتجشم المشاق ويتحمل العناء فى سبيل الله وخدمة الدين، واشكروا الله على ما ستنالون من الأجر الذى لا ينتهى والعوض الذى لا يغض، وسيأتى كل عناء رخاء وكل صدمة هناء.

وكان كثير العمل بوصية : (آت كل ذى حق حقه)، و (أنزلوا الناس منازلهم) ويمنح ذوى الفضل

والعلم أقصى ما يستطيعه من التوقير والاكرام ويعاملهم معاملة ممتازة جديرة بمكانتهم على قدر منازلهم، حتى يتحرى المكان الذى يجلسهم فيه ، فيعده اعدادا، ويجالسهم مجالسة ذات تواضع وانخفاض كبيرين، ربما يلتبس من أجل ذلك التميز بينه وبين جلسائه على من لا يعرفه من ذى قبل .

وكانت تتوافد البعثات التبليغية ذات العدد الكبير إلى بستى نظام الدين [مقر حركة الدعوة الرئيسي] فكان يدرك بذكائه المفرط وبصيرته الوقادة منازل كل فرد من أعضاء تلك البعثات، ويعاملهم معاملة جديرة بشأنهم وبمكانهم، ويضع معه ما يستحقه من الاكرام، ومن ثم فلا يشكو أحد قلة العناية أو التفريط فيما يستحقه، وكان يعنى بهذا الأمر عناية لم يجد الاهمال والتقصير إليها منفذا قط، حتي في أواخر أيام حياته عند ما تشوش التفكير، وانشغل القلب والعقل فيما يعنيهما، وأصبح الجسم يعاني من الآم الأمراض المبرحة ما لا يعلمه الا الله.

غير أن هذه العناية الكبيرة بالعلماء لا تجعل الدهماء يشعرون بالتفريط فى حقهم، بل كان مجلسه يشمل الجلساء من العناية والاكرام ما يدع كلا منهم يشعر أنه هو الأكرم عليه والأحب لديه إذا ما تفرقوا، يرى كل منهم فيما بينهم أن ما صنع به الشيخ هو آخر ما يصنع من الحب والعطف والاكرام معا، فيتجلى فى ذلك، العدل الشامل الذى يرويه الحديث الشريف عن النبى صلي الله عليه وآله وسلم : لا يحسب جليس أن أحدا أكرم عليه منه > وكان يحتفظ بهذا العدل فى الحضر والسفر معا، وأما بخصوص نفسه فكان يرفض كل ما يدل على امتياز ما، فنرى فى رحلة دعوية يحمل رفيق حذائيه، فينتزعهما من يده ويقبل يديه .

أما خدمة الضيوف - بمعناها الواسع - ولا سيما الذين كانوا يتوافدون كأعضاء فى البعثات الدعوية وخصوصا إذا كانوا من أولى العلم ، فكان يراها فرضا عليه ولا يطمئن إلى حد من القرى والاكرام، يقول «:ان السنة تؤكد على اكرام عامة الضيوف فكيف بهؤلاء الخاصة؟»

يقول الأستاذ معين الله الندوى نائب أمين عام ندوة العلماء حاليا - : كنت مرة فى مقر الدعوة فى دلهى الجديدة، في شهر رمضان، وأنا مريض، فلما حان الموعد الذى كنت أتناول فيه العشاء، وجعل بعض التلاميذ يحملون عشائي إلى فى غرفة كنت ألزمها فى الطابق العلوي، فقال الشيخ محمد الياس - رحمه الله - وقد نهض يصلى النوافل - دعوه أحمله أنا إلى الأستاذ بعد فراغى من الصلاة، لكنهم أبوا الا أن أحضروه عندى، والشيخ فى صلاته، فلما انتهى من صلاته أسرع إلى يقول : قد قلت لهؤلاء : أتركونى أسعد بحمل العشاء إلى الأستاذ، فلم يرضوا ثم جلس إلى يحادثني، ويلاطفني ويؤنسني .

وكان يتخذ أظرف الطرق وألطفها إذا أراد أن يخص بعض الناس ببعض الاكرام والتوقير فقد حضرنا مرة في بعثة دعوية مكونة من تلاميذ دار العلوم ندوة العلماء يربو عددهم على خمسة عشر طالبا فدخل الشيخ علينا فى الربع الأخير من الليل بكوب من الشاي، قائلا: «اخوانى انتخبوا أنتم من بينكم أحدا أقدم إليه هذا الكوب من الشاي، فانه واحد». فاجتمع رأيهم على، وشرفنى الشيخ بمنحه اياي

وقد تعود أن يركب من القطار عربة من عربات الدرجة الثالثة، فاتفق له أن يركب الدرجة الثانية، على الحاح أكيد من بعض المرافقين، غير أنه لم ينعم بذلك، ولم يسعه ضميره، بل جعل يساور قلبه الشئ الكثير من الحرج والضيق والخفقان، وقد قرأ بعضهم ذلك على صفحة وجهه، فبادر إليه قائلا : هل يتأذى السيد بشيئ - لا سمح الله بذلك ؟ - فلم ينبس ببنت شفة تعبر عن شيئ من الحرج والضيق اللذين يعانيهما، مخافة أن يؤذيهم ذلك، ويسبب لهم الخجل والندامة فيتأسفون على أنهم قد اشتروا هذا الأيذاء بهذا الثمن الباهظ، وأنهم أرادوا الإراحة فحصلوا على الأيذاء على حسابها، ولو قال الشيخ إنه قد نعم بالراحة والطمأنينة ، لكان كذبا لكونه ضد الواقع الذى كان يجتازه، فوجه إليهم سؤالا عوضا عن أن يجيبهم بلا أو نعم ، أفهل تشعرون بالغبطة والسرور بمجلسى فى هذه الدرجة ؟ قالوا : أجل ... وكثيرا «فقال : قد كفانى ذلك سرورا وراحة ونعمة. ومن مجامع التواضع فى الشيخ أنه لا يرى نفسه قيمة بأى شيئ مما يسمي بالتكريم والحفاوة والاحترام وما إلى ذلك من كلمات المعنى، ولم يشعر فى يوم ما - وهو أدق شعورا وأرهف حسا - بأنه من أجلة العلماء وكبار الشيوخ، قائد ومؤسس أول حركة دعوية كبيرة من نوعها ووراءه حشد من المسلمين لا يأتي عليهم الحصر، يعدون اشارته حكما وطاعته غنما .

كتب مرة إلى هذا العاجز، يقول :

« ...انه لمن أماني القلبية أن تقبلوا التماسي - بشأن أن لا تزيدوا على اسمى المتواضع كلمة ما، فانه عندى تقليل من شأن الكلمات بها فى مواضع استحقاقها» .

ان هذا الموقف من نفسه ليعكس عكسا واضحا مدى الحلم والتواضع وانكار الذات، الأمر الذى كان سمة بارزة لشيخنا .

ويقول فى رسالة إلى الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى وهو ابن أخيه وتلميذه وأصغر منه سنا :

... تشرفت بتسليم كتابكم الكريم الذى استوجب لى الغبطة والسرور، وانى لفى حنين شديد إلى قدومكم والاجتماع بكم .

ومن كان ليولى هذا الحقير التافه التفاتة، ان لم يسعد هو بعناية أمثالكم، فأول من تلقانى بالحفاوة والتكريم بعد الشيخ رحمه الله - يعنى الشيخ المحدث الكبير أحمد السهارنفورى صاحب «بذل المجهود فى حل ألفاظ أبى داوود » - هو انتم، ثم شملنى أحد أولياء الله بعطفه وكرمه وكان ذلك أيضا بفضلكم .

وان نبأ قدومكم جعلني يخامرنى مزيج عجيب من السرور والخوف، أما السرور : فلأنى أسعد بلقائكم ... وأما الخوف : فلأنى أخشى أن تطلعوا على دخائل النقص، وكوامن قذارة النفس الا انى أتطلع إلى لقائكم لأنى أرجو أن نفسى ستوفق إلى الصلاح إذا جالست أمثالكم . .

ويقول فى كتاب آخر إلى الشيخ محمد زكريا نفسه :

« هنيئا لأرباب القلوب التمتع بشهر رمضان المبارك، وما ينطوي عليه هذا الشهر الكريم من خير وبركة، وأنوار ورحمة، وأدعو الله أن يوفق العزيز الكريم لمزيد من الترقي في مدارج الرضا والقرب به والانابة على مر الأيام، ولا تسألوا عن بؤسي وضعف حالي، وإنما التعويل على رحمة الله جل وعلا، وأرجو الله تعالى أن يغفر لي ولأمثالي بدعاء وانابة الشباب السريع السير في دروب الكمال الروحاني والايمان أمثالكم»

ولم يأمن على نفسه حتى في آخر لحظه من حياته، وظل يحاسبها ويراقبها، بل كلما زاد اقبال الخلق عليه والتفافهم حوله زاد هو خوفا واشفاقا وقلقا، وزاد في الاستعداد والتسمح ضد النفس الأمارة وفي الأخذ بأسباب يعين على الاحتساب وتكسب الأخلاص، وطالما كتب إلى كثير من ذوي العلم من أولي الأخلاص والحق والبصيرة الدينية - بأسلوب فيه كل الألحاح واللجاجة أن ينبهوه لو رأوا فيه ما يؤدي إلى الأعجاب بالنفس أو الأنانية.

يقول في رسالة إلى الشيخ محمد زكريا والشيخ عبد اللطيف عميد مدرسة مظاهر علوم سهانفور في ولاية اترابراديش بالهند :

«عزيزي المحترم محمد زكريا وحضرة سيادة العميد ! دامت بركاتكم السلام عليكم ورحمة الله وبركاتة ؛ أرجو أن تكونوا بكل خير وعافية ، هناك أمر مهم مازلت أولية كل العنايةـفيما قبل رمضان المبارك، الا أن الضعف البشري والضعف الأيماني اللذين أعاني منهما، جعلاني نسيته بتاتا، وكنت قد عقدت العزم على أن أذكره لكم

وهو أن هذا العمل - عمل الدعوة والتبليغ - اتسع نطاقه، وتصعد نشاطه - بفضل الله وكرمه - وبلغ من شأنه أن جعلني لا آمن على نفسي العجب والكبر، ولذلك فاني في أمس الحاجة إلى مراقبة أمثالكم من ذوي الحق والصدق، فلتحتسبوني كما وصف لكم، ولا يغيبن عن ذاكرتكم في أية لمحة من الوقت أني محتاج إلى الرقابة والحراسة، فاكدوا على الصمود والأخذ بنواحي خير هذا الأمر والتحاشي عن نواحي شره.

ويذكره العلامة السيد سليمان الندوي (رحمه الله تعالى) في مجلة : معارف العلمية الشهرية الشهيرة الصادرة من مجمع " دار المصنفين" أعظم جرا، الهند في عدد شهر نوفمبر سنة ١٩٤٤ م، فيقول:

«كان قد نظم أحد الأصدقاء حفلة شاي بعد صلاة العصر بمناسبة نزول الشيخ محمد الياس بلكهنئو وكنت قد سعدت بالحضور فيها، فلما حانت الصلاة رحنا نصلي، ولم يكن هناك مسجد نصلي فيه جماعة فاتفق رأي الأخوةعلى أن نصلي في ذلك القصر الذي كنا مجتمعين فيه، فلما سووا الصف، أشار إلى الشيخ بالامامة فاعتذر، فتقدم وصلى بنا، فلما سلم أقبل على القوم يقول : اخواني! قد ابتليت ببلاء أرجوأن تدعوا الله جميعا أن يفرجها عني، وهو أني منذ أن نهضت لهذا العمل، جعل الأخوة يمنحوني الود والاحترام يمنحوني الود والاحترام ، حتى اصبحت اخاف على نفسي الكبر، وأخوف ما أخافه عليّ

هو أن أصير أحسب أني شيخ من الشيوخ قد تزكت نفسه ونقيت سيرته، ولذلك فاني ظللت أواصل الدعاء أن يخرجني الله من هذا البلاء، سليما نقيا عفيفا، فأعينوني أنتم بالدعاء»

وأهدى إليه أحد الأخوة سجادة ثمينة، فثقلت هي على طبعه جدا، فلم يلبث أن تقدم بها هو إلى أحد كبار علماء البلد قائلا : تقبلوها على حقها، فان صاحبها قد أخطأ بها موضع استحقاقها فأهداها إلي ظنا منه أني عالم يستحق الخدمة والهدية، فأنا بدوري أهديها إلى من أراه من أولي العلم الذين هم أولى بها».

وفي أواخر الأيام من حياته وفي مرضه الذي توفي فيه جاء رجل - وقد تزاحم عليه أصناف من الزوار والعائدين، وقد منع المصافحة نظرا إلى شدة مرضه - وجعل يتخطى رقاب القوم إليه يحاول أن يصافحه، فتقبل إليه رجل من أهل ميوات وطرده بيديه بشدة، فرجع الرجل على عقبيه يوجه إلى طبقة العلم والدين ما يستطيعه من السباب والشتم، وقد أحسن بذلك الشيخ، فاستدنى الميواتي يعاتبه ويقول: أن جرح قلب مسلم أبغض شيئ لدى الله جل وعلا، فاذهب إليه واستعفه واسترضه، حتى يصفو ما بينه وبينك. فذهب إليه وأدركه خارج المسجد، وهو ممعن في السباب بأقوى لسان في فيه وأحده، والميواتي واقف بين يديه على قدميه واضع احدى يديه على الأخرى، يكرر الاستغفار والاعتذار ويقول : اني قد آذيت قلبك، فلك أن تعاتبني بما شئت ولكن عفوا ألتمسه منك -

سماحة صدره وسعة قلبه :

نشأت في الهند منذ مدة بعيدة حلقات ودوائر للعلم والدين، وكل حلقة ترى الدين والعلم حكرا عليها، ولا تتصور وجودا لهما خارجها، وعزيز عليها أن تعترف بفضل وعلم وتقوى حلقة أخرى، ولا ينبسط أصحاب جماعة حين يجتمعون بأصحاب جماعة أخرى انبساطهم فيما بينهم ولا يسرون سرور ذوي العلم والدين والتقى حين يتلاقون ويتحادثون، واستفحل هذا الأمر شر استفحال حتى أصبح من اللاممكن لدى كثير من الناس الجمع بين حب رجلين يختلفان اختلافا سياسيا أو نظريا، بل أو صناعيا ومهنيا، يحسبون أن ذلك جمع بين الأضداد، وذلك لا يمكن .

ومن جراء ذلك فان دائرة الافادة والاستفادة أخذت تتقلص وتنحسر بصورة مستمرة على حساب توسعها، وأخذت الفجوة والجفوة تتعمقان وتتفسحان فيما بين أهل العلم والدين على حساب انكماشهما وزوالهما .

ولكن شيخنا قد وفر الله عليه من السماحة في الصدر والسعة في القلب ما يسع جميع الجماعات والأحزاب من أولي الحق على صنوف الخلافات وأنواع الميزات بينهم، وكان في قلبه لكل منهم موضع حب ومكان ود فكأنه كما قال الشاعر العربي القديم :

لكل أمرىء شعب من القلب فارغ ‏ ‏ ‏ ‏ وموضع نجوى لا يرام اطلاعها

فهو يرى أن الأمة المسلمة لا يخلو فرد منها من مسكة خير ومسحة فضل، وكل منها يختص بخصائص ويتصف بأوصاف، وينفرد بمؤهلات لا توجد فى غيرها فليكن هو موضع احتفال واستفادة من هذه الناحية، وكان الشيخ بدوره يستفيد من كل ذلك فى دعوته وقد منحه الله قدرة عجيبة على الانتفاع بتلك الخصائص والصلاحيات الوفيرة الخصبة، وعلى استثمارها ولا سيما الذين كانو يتوسمون فيه طبيعة منسجمة مع الدين ونزعة فطرية للخدمات الدينية، فكان حريصا على استخدامهم فى الأعمال الأسلامية، واتخاذهم مطايا لتصعيد وتوسع وتدعيم النشاطات الدينية والدعوية .

يكتب إلى رجل يوصيه فى عامل فى مجال الدعوة، فيقول :

« ..لا بد من لفت النظر إلى استرعاء عناية بيوت السادة والسراة الكرام، فى التعليم والتبليغ معا، ولا يغيبن عن البال أن ذوى الكفاءات واللباقات تحول دون استلفاتهم واستمالتهم عقبات ربما تكون مستعصية، وأكثرهم صلاحية، هم أكثرهم امتناعا واستغناءا واستعصاءا على عملية التقارب والتفاهم ».

ومن هنا فتكاتف فى دعوته وحركته أساتذة وتلاميذ معاهد اسلامية ومدارس فكرية كثيرة، من دار العلوم ديوبند إلى دار العلوم ندوة العلماء، إلى مظاهر العلوم بسهارنفور، إلى الجامعة الملية بدهلى الجديدة، إلى كثير وكثير من الكليات والجامعات العصرية، بجانب رجالات التجارة والزراعة والصناعة، والموظفين والمحترمين، ومن إليهم كثير من المسلمين، الذين يعملون فى مجالات شتى، وينتمون إلى أحزاب وجماعات مختلفة، كنا نشاهد فيما بينهم علاقة محكمة مفعمة بالتوادد والتآخى والتعارف والتعاون، وليس هناك شعور بالغربة، والشيخ ينوه بالكفاءات والمزايا الشخصية والطبيعية فى كل عامل، فهذا: يتصف مثلا بصلابة فى الدين، وذاك بالظرافة والدقة، وهذا بذكاء وشهامة، وذاك بخبرته الدقيقة وتجاربه الواسعة، وكل ينال التشجيع والإشادة بمزاياه وعنده أن المؤهلات إنما أودع الله فى الانسان لتستخدم للدين ونشره ولاعلاء كلمة الله، فلترتكز على ذلك ولتتفق فيه، ومن ثم فهو يتألم كثيرا حينما يراها توضع فيغير موضعها، ويرى الشيخ أن الطبع المستقيم، والقلب السليم، والنشاط الوفير، والذكاء المفرط، والهمة البعيدة ،الارادة القوية، والطموح والشهامة، والبصيرة والتيقظ والنظرة الغائرة الثاقبة ، و ..... و ...

كل ذلك، الدين أولى وأجدر به من الدنيا، ولو تركز على العمل الاسلامى اندفعت عجلته إلى الأمام اندفاعا أسرع وأقوى.

يوجه رسالة إلى تاجر، يقول فيها :

« .....انى نوما وددت من الأحباب المخلصين من الشباب والشيوخ أمثالكم أن يكونوا أعوانا لى على هذا العمل، بكل ما لديهم من النشاط والحماس، بل يكونوا هم أصلا وأنا لهم تبعا، فان همتكم وطموحكم وقوتكم وذكاءكم، كل ذلك يؤهلكم للنهوض بعمل حى من أى نوع كان، وان الأعمال الحية إنما يجدر بها رجال ذوو حيوية ونشاط .

وكان يريد الشيخ هذه المساهمة من الشعب بأسره، جماعات وأحزابا وأسرا وأفرادا .

وسماحة صدره تلك تتبلور كذلك فى الرأى الذى يراه فى العلماء الربانيين ومشايخ الطرق الحقة، فكان يتلقى بكثير من الحفاوة والاكرام والسرور الغامر لو توجه أحد من هؤلاء بالمساهمة إلى عمل الدعوة وقد عرفته أنا فى بعض الأيام ببعض المنتسبين إلى الطريقة المجددية والمنتمين إلى الشيخ الكبير فضل الرحمن الكنج مراد آبادى ـ شيخ ومربى العالم الكبير محمد علي المنيكرى مؤسس ندوة العلماء ـ ففرح فرحا كبيرا وتناولهم بكثير من المودة والاحتفاء وقال انى منذ صباى أسمع عن مشايخ لا يفترون يقولون : ان من الهم الرئاسيةالدينية والتربية الربانية فى يوم الناس هذا هما اثنان لا ثالث لهما، وهما :الشيخ الكبير الامام رشيد أحمد الكنكوهى، فى غربى الهند، والشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادى، فى شرقى الهند، وأضاف قائلا : انى أود أن يقبل على هذا العمل أصحاب وأتباع الشيخ فضل الرحمن ـ رحمه الله ـ

وكلما كان يتحدث عن كبار العلماء المعاصرين، ورجال الفضل والتقى كان يلاحظ كل الملاحظة مكانتهم العلمية والدينية، فيتحرى الاسلوب الذى يمثل الأعتراف بفضلهم وكبر شأنهم، مما يدل بعض الدلالة على بعد نظره ودقة تحرية ورعايته .

وبفضل هذا القلب الكبير والصدر الرحيب، استطاع أن يستعمل ـ لدعم العمل الدعوة والحركة التبليغية ـ العدد الكبير من أولئك الذين كان الرأى العام ينظر إليهم شزرا، ويظن أن علاقتهم مع الدين وصلتهم بالله أفتر ما تكون، فالعودة بهم إلى الدين، وايجاد العلاقة بينهم وبين العمل الاسلامى شيئ فى منتهى الصعوبة، لكن الذى كنا نشاهده فيمن ينتسب إلى الشيخ، كان يكتب هذا الظن، ويفضح خطأ هذا الرأى فى ضوء النهار، فكنا نشاهد تحولا واضحا فى حياة هؤلاء بعد ما يقبلون إلى الشيخ فيستخدمهم فى عمل الدعوة ويربطهم ببعض رجال الدين وأهل اليقين ممن كان يثق بهم، وكان يسند إلى كل من الأعمال ما يلائم طبيعته ومستواه العلمى والفكرى، ويتفق وصلاحيته وأوضاعه التى يعيشها، وكان يشيد بعمله الذى قام به ، ويعرف له فضله، ويقدره تقديره، مما يحثه على عمل أكثر، ويشجعه على بذل سعى أوفر، ويقوى ارادته، ويعزهمته، ويؤكد عزيمته .

استقامته :

قد ذكرتنا استقامته فى الدين ـ فى العصر الذى أصبحت هى فيه أندر شيئ وأقله وجودا ـبالاستقامة فى السلف الصالح الكبار، حيث رأينا فيه على السنن الصغيرة من الأستقامة والحفاظ ما لو كان بعضه للقوم فيما يتصل بالفرائض والواجبات لكان موضع كل تقدير وتحبيذ .

والأ يام الأخيرة من مرضه الذى توفى فيه، خير دليل على استقامته الفائقة، ففى ذلك المرض الذى دام أكثر من ستة أشهر، والذى جعله يفقد قواه يوما بعد يوم، ويزداد ضعفا وخورا وانهيارا، حتى صار لا نكاد نسمع كلامه ما لم نقرب آذاننا إلى شفتيه ـ لم يفته الحفاظ على الصلاه مع الجماعة، وقبل وفاته بشهرين تقريبا قد شهدنا منه ما قضينا منه العجب، فكلما حانت الصلاة أخذه رجلان يقيمانه فى الصف وهولا يستطيع القيام والجلوس مباشرة، فلما استوى قائما، وقال الأمام : الله اكبر فكأنه نشأت فيه قوة جديدة، مكنته من الركوع والسجود والقيام، حتى القيام فى صلاة الفجر الذى يكون أطول منه فى

الصلوات الأخرى ركوعا وسجودا، كل ذلك بكل هدوء وطمانينه، وما ان سلم ..الامام الا أصبح كأنه تجرد من كل مسكة فيه من القوة، فلا يقدر على أن يقوم بنفسه، فكان يعود إلى مكانه متهاديا بين رجلين، وأما فى السنن فكان يعينه رجل منا على الركوع والسجود، ولما نوى الوتر، رفض كل عون، وعاد يباشر الركوع والسجود .

واستمر فى الحفاظ على الجماعة حتى فى الوقت الذى عجز عن القيام بتاتا ولم يفقد همته ولم يفقد فى القيام ولكن الأطباء منعوه منه بإلحاح لا الحاح بعده، ولما عجز عن الجلوس أخذ يؤدى الصلاة مضطجعا مع الجماعة، فكان يصفف سريره مع صف المصلين.

ولم تفته العناية كل العناية بالوضوء والسواك، وحتى آخر لحظة من حياته، وقد تولى بعض العلماء وجماعة من الاخوان الميواتيين مسئو لية الأعانة على الوضوء، وكانوا يتعهدون فى وضوئه كل الآداب والسنن ، ولم يتنازل عن الوضوء الا حينما جعل الماء يضره شديدا، وأكد عليه العلماء والأطباء المنع بالفتاوى، معتبرين أن الأخذ بالرخصة التى أنعم بها الله على عباده عزيمة بنفسها، ورفضها كفر بهذه النعمة، كما أن العمل عزيمة فى موطنها .

وهو ذو عناية كبيرة بالآذان والإقامة والجماعة فى السفر، والحضر كليهما، ولا أذكر صلاة أداها دون الآذان والجماعة فى الفترة الطويلة التى رافقته فيها فى رحلات كثيرة وجولات، سواء أكان السفر بالقطار أوبالسيارة أوبالعربة، فقد أذن فى القطار أحيانا وهو يموج بالركاب وقد لاحظنا أن المسافرين ما ان سمعوا الآذان حتى فسحوا لنا فاستوينا صفوفا، وصلينا جماعة .

وقد عدت من سفر معى رفيق لى لم يتمكن من أداء الصلاة فى القطار من أجل الزحمة، وبعد نزولنا فورا أخذ رفيقى يقضى صلاته بادرت أنا فلاقيت الشيخ، فسألنى أول ما سألنى : صليتم ؟ قلت : قد صليت أنا، وذا رفيقى يقضى صلاته، فقد فاته الأداء لعذر، فتأسف الشيخ جدا، قال : أمارس هذا العمل - عمل الدعوة والتبليغ - منذ نحو عشرين سنة، ولم تفتنى - والحمد لله - أية صلاة مع الجماعة، حتى أعاننى الله سبحانه وتعالى على أن أؤدى صلاة التراويح أيضا فى القطار .

وقد سبق أن ذكرت أنه - بشأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - كان ملازما لمنهج تربوى تدريجى ذى ترتيب خاص ومبادئ معتدلة، لكنه حينما يرى المنكر بواحا ويرى أنه قد بلغ السيل الزبى، وطما الوادي على القرى، كان ينهج منهج السلف الكرام، والأئمة العظام، والعلماء الراسخين وهو نفس المنهج الذى نهجه النبى الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد جاء فى الحديث الشريف: «فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء».

وفى سنة ١٣٥٧ هـ خرج الشيخ للحج والزيارة، فاتفق أن قامت المنافسة بين الباخرتين على ميناء كراتشى وخفضت احداهما فى الكراء وجعلها ٥٥ روبية - بينما كانت فى الأخرى ١٨٢ روبية - رغبة فى جلب السافرين إليها، الا أن هذه الباخرة، كانت تقوم باجراء اللقاح فى ركابها طبيبة، فلما بلغ الشيخ ذلك

قال - وقد استثار به الغيظ - أفى فريضة من فرائض الله يؤتى الحرام؟ ،أما أنا فلست بفاعل، وأخيرا اتصل احد هاتفيا بطبيب فحضر، وقام باجراء اللقاح فيه وفى رفقته .

الدعاء والإنابة إلى الله :

الإنابة إلى الله فى كل شيئ وعلى كل حال، والابتهال والتضرع، والاكثار من الذكر والدعاء كل ذلك روح تتوقف عليه حياته، وكان ذلك هو جوهر وقوام حركته الدعوية، قد صرح بذلك فقال : ان الترتيب السديد فيما يتصل ببرامج حركتى هذه كما يلى:

الدور الطبيعي فى ذلك لابد أن يكون للقلب - يعنى الانابة إلى الله بالقلب والقالب والتضرع إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه توكلا يقطع الرجاء عن كل ما سواه - ويأتى بعد ذلك دور الجوارح فى الدرجة الثانية ..- يعنى السعي والاجتهاد وما إليهما - ثم يأتى دور اللسان فى الدرجة الثالثة .

يريد أن الخطب والمحاضرات يكون لها أقل نصيب، والسعى والجد لهما نصيب أكثر من الأول، أما النصيب الأوفر الأكبر فهو للقلب، فليكن القلب منيبا إلى الله، متوكلا عليه، معلقا به، يعود إليه ويناجيه ويدعوه « ١ »

وكان يأخذ بهذا المبدأ بالنواجذ الشيخ، ومن يسعى سعيه، ويعمل فى حقل الدعوة والتبليغ تحت إشرافه، وكان يوصى بذلك غيره، وكتب إلى مرة، يقول :

‹...لا يغيبن عن البال أبدا - وليكن ذلك فى عين الأعتبار دائما -أن الهدف الأصيل من كل عمل دينى هو تصعيد قوة الدعاء والتضرع، فلا تفوتن لحظة من الوقت دون العمل علي ذلك، ولئن تعود القلب على الانشغال بالدعاء بجمعية وحضور حين انشغال الجوارح بأعمالها لها من سعادة، والا فانتهزوا كل فرصة بعد الصلوات الخمس المكتوبة ووقت من السحر ومناسبات الجولات الدعوية، ولتكن هذه الأوقات كلها معمورة بالدعاء والانابة .

وكان يلتمس - التماس المضطر الذى لا يقر له قرار - من أهل القلوب والاخلاص، الدعاء لنجاح وانتشار الدعوة التى نهض بأعبائها، وقد استحوذ ذلك على طبيعته، ولا غرو فانه من صميم العمل النبوى فهو عظيم وجليل، ودقيق وخطير .

و يوجه إلى الشيخ محمد زكريا رسالة يقول فيها :

... قد واصلت رحلاتى إلى ميوات كل أيام الجمعة غير شهر رمضان، والأمر الذى أريد تحقيقه، إنه بالتاكيد يفوق مؤهلاتى وكفاءاتى، إنه من السمو بالمكان الذى ربما لا يسمو إليه الفهم والذكاء، فضلا عن تنفيذه، وعلى الرغم من ذلك كله فان طبعى لا يكاد يفكر فى شيى سواه، ولا يكاد يمل من ممارسة كل المحاولات فى سبيل وضعه موضع التنفيذ، وقد أصبح لى ذلك الشغل الشاغل، ولذلك فان هذا الأمر يستحق كل العناية بالدعاء منكم ومن أمثالكم، لكونه عملا حساسا دقيقا ولكونه المدار الوحيد لتبليغ الدين

والتبشير به، فلا تضنوا على بدعواتكم الصالحة، وليس على الله بعزيز تحقيق أى سؤال، وإنما هو الدعاء منكم بالانابة والعناية، وان أمنيتى الحبيبة أن ينصرف كل من ذهنى وفكرى، ووقتى وقوتى، عن كل شيئ .... فى الحياة إلى شيئ واحد وهو الدعوة والتبليغ لا غير، وأخيرا لا أريد أن أطيل عليكم وإنما أريد أن تدعوا أنتم والآخرون من المشايخ الذين يمكنكم أن تستلفتوا اهتمامهم إلى الدعاء والعناية به».

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الهبة، باب فضل المنيحة.

(٢) كان من كباد علماء الهند المشاركين في علوم كثيرة خصوصا التاريخ والآداب، كان أستاذا في الكلية الشرقية (ORIENTAL COLLEGE) في لاهور، وهو من اعضاء الاسرة الحسنية أسرة الامام السيد احمد الشهيد من أولاد ابن اخته السيد محمد علي الحسني التونكي، توفى في سنة ١٣٩٠هـ في كراتشي.

(٣) عميد دار العلوم ندوة العلماء ،عميد الجامعة الدينية بهاولبور (باكستان) سابقا، ومن كبار أدباء العربية. وعضو مجلس الامناء لرابطة الادب الاسلامي العالمية.

(٤) أحد العاملين في مجال الدعوة المنقطعين اليها في مركز التبليغ في دلهي.

(٥) أحد كبار اعضاء اسرة الشيخ، وهو والد أمير الجماعة الحالي فضيلة الشيخ انعام الحسن مد الله في حياته. توفى في سنة ١٣٩١هـ.

(٦) كان من كبار تجار دلهي الموفقين، المساعدين على عمل الدعوة.

(٧) اقرأ ‹تجارب حياتي› في الاردية للشيخ محمد منظور النعماني.

(٨) أحد أعضاء اسرته وأقاربه، كان المثقفين بالثقافة الحدية، خريج جامعة عليكراه الاسلامية وزميل الدكتور ذاكر حسين خان رئيس الجمهورية الهندية سابقا، توفى في ٢٣ من ذي القعدة ١٣٦٦هـ (٩ من اكتوبر ١٩٤٧م) قبلة أحد الهندوس - وهو من أصدقائه - بالرصاص، وذلك على اثر التقسيم في وطنه كاندهلة.

(٩) هو فضيلة الشيخ محمد الياس المترجم، وخليفته وأمير جماعة التبليغ بعده، الذي توسع فيه أمر الدعوة والتبليغ توسعا كبيرا، توفي.

(١٠) وتمام الآية: ‹ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله›.

(١١) مقتبس من ‹محاولة لنصرة الدين واصلاح المسلمين› للشيخ محمد منظور النعماني.

المركز العربي للكتاب
الشارقة - الامارات العربية المتحدة
ص.ب : ١١٤٥ الشارقة - تلفون : ٥٢٦٥٢٠ - فاكس : ٥٢٦٥١٩ - تلكس : ٦٨٥٠١ برايم - ي - م